الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٩ — الثلاثاء ٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ — ٢ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

شئوننا العامة

تتيح لنا الحياة النيابية فى كل عام فرصتين تعرض فيهما شئون الدولة جميعاً عرضاً شاملا . الفرصة الأولى بعد أن يلقى خطاب العرش وتبسط فيه الحكومة سياستها العامة ، وتجمل ما اعتزمت القيام به من مشروعات . والفرصة الثانية حين تعرض الحكومة ميزانية الدولة وتقدم لها بيانات تفصل ما اشتملت عليه أبواب إيراداتها ومصروفاتها ، وتوضح الأسس التى بنت عليها تقديراتها . وفى كلتا الفرصتين يختلف على منبرى المجلسين شيوخ الأمة ونوابها من مؤيدى الحكومة ومعارضيها ، فيتناولون شئوننا العامة من كل جوانبها ، ويدلى كل ذى رأى بما لديه من مقترحات ، وما تجمع لديه من ثمرات الخبرة وطول التفكير . والذى يتتبع ما يقال فى البرلمان فى تلك المناسبات وغيرها من الجلسات يحس بأننا لا ينقصنا إدراك مواطن الضعف فى حياتنا العامة ، ولا تنقصنا معرفة الطريق الذى يجب أن نسير فيه لإصلاح أحوالنا والنهوض ببلادنا ، ولكننا مع هذا نتقدم ببطء فى هذا السبيل . فما السر فى ذلك؟

من المحقق أن الحرب الحاضرة من العوامل الهامة التى عاقت تنفيذ كثير من المشروعات النافعة ، وحالت دون استكمال الوسائل الضرورية لذلك ، كما أنها خلقت مشاكل عارضة تستنفد كثيراً من جهود الحكومة ونشاطها ، وتعطل السير الطبيعى فى كثير من النواحى .

ومن المحقق كذلك أن الحكومة أصبحت تضطلع بأعباء كثيرة لم تكن تضطلع بها الحكومات من قبل ، وأصبحت ترمى منها مالم ترم من الحكومات فيما مضى من العهود ؛ فلم تعد مهمة الحكومة أن تحكم بالمعنى الضيق الذى ينطوى تحت هذا اللفظ ، بل أصبحت مهمتها مهمة رب الأسرة يرعى شئون أسرته كلها . فنحن لا نكتفى منها الآن بأن تصون الأمن ، وتوفر العدل ، وتكثر من

مشروعات الري والصرف ، بل نطالبها فوق ذلك بأن تطعم كل جائع وتكسو كل عار ، وتعالج كل مريض ، وتعلّم كل جاهل ، وتوجد العمل لكل عاطل ، وتغني كل فقير ، وتهدي كل حائر ، وتأخذ بيد كل عاثر ؛ ونطالبها بأن ترقي أذواقنا ، وتهذب أخلاقنا ، وتوفر لنا وسائل الرياضة واللهو والتسلية ؛ ونحن نطالبها بأن تقوم على تدعيم الإنتاج القومي وتقويته ، تتولاه برعايتها وتحوطه بعنايتها ، فتشجع الصناعة وترقي الزراعة وتنشط التجارة ، وتقوم بنفسها في ذلك بما تقصر عنه جهود الأفراد من واسع المشروعات . ونحن نطلب إليها أن تتكفل لنا من وسائل الدفاع ما يحمي كياننا ويصون استقلالنا . وبالاختصار نحن نطلب إليها أن تقوم على كل شأن من شئوننا جل أو صغر . نطالبها بهذا كله ، ونحملها ما تحمله الحكومات الحديثة في أرقى البلاد من تبعات ، ولا نحسب حساب ما يقتضيه ذلك من نفقات وجهود وما يتطلبه من فروض قد لا تسخو نفوسنا ببذلها راضين . فلا نرتاب في أنه لا توازن بين آمالنا ومقدرتنا ، ولا تكافؤ بين ما نطلب إلى الحكومة أن تحققه وما نحمله في مقابل ذلك من تضحية .

ولا جدال في حرص الحكومة على أن تجيب أكثر ما تستطيعه من تلك المطالب ، ولكن ما يبقى بين يديها من المال والجهد بعد الوفاء بحاجة الأعمال القائمة لا يكفي لتحقيق هذه الأعباء الجديدة كلها ، بل هو قد لا يفي ببعضها ، فلا حيلة لها إلا أن توزعه على وجوه الإصلاح الجديدة ، فإن لم يصبها منه وابل فطل ، وقد لا يمس بعض الأعمال منه إلا رشاش يبل الحلق ولا يبلغ الجوف فلا ينقع غلة ولا يطفئ ظمأ .

ونحن نقدر تماما هذه الاعتبارات العملية التي تحد من مقدرة الحكومة على استحداث المشروعات الجديدة ، ونرى عذرها قائماً في ذلك بسبب هذه الظروف الحربية الشاذة ، وبسبب اتساع أعبائها وازدياد المطلوب منها دون أن يقابل ذلك الاتساع الكافي في مواردها ؛ ولكننا مع هذا نرى في الاستطاعة أن نصل إلى غايتنا في زمن قريب ، إذا أحسنا رسم الخطط الدقيقة لسير نهضتنا ، واصطنعنا في تنفيذها الأساليب الحديثة التي نجحت نجاحا باهرا في أمم تماثلنا في كثير من الظروف .

أول هذه الأساليب وأبلغها أثرا في النجاح « التركيز » .

وفي الحياة العادية أمثلة كثيرة تبين ما يفعله التركيز وما يحدثه من أثر قوي . فالشمس تشع ضوءها وحرارتها فتقع على الأجسام هينة رفيقة تدفئها ولا تحرقها ، ولكنك إذا اعترضت تلك الأشعة بعدسة تلمها وتجمع متفرقها في بؤرتها ، أحرقت ما يكون في تلك البؤرة من مادة قابلة للاشتعال . والمطر يسقط على الجبال قطرات متفرقة ، فإذا حصر في مسالك ضيقة تجمعت منه سيول جارفة تفيض منها الأنهار . وإنك إذا فرقت مائة ألف من الجنيهات للبر بالفقراء بالتساوي على المستحقين ، أصاب كلا منهم جنيه لا يكفيه إلا مدة قصيرة من الأيام ، ولكنك إذا وزعتها على عشرة فقراء كان نصيب كل منهم مائة جنيه ، وهو مبلغ يصلح أن يكون رأس مال يقوم به بعمل يدر عليه الرزق ما عاش ويكفيه مؤونة الالتجاء لإحسان المحسنين على الأيام .

وفي الحرب الحديثة تجلى نجاح مبدأ التركيز على أروع صوره . فالقوى الموزعة على عدة ميادين يضعف أثرها جميعا ولا تنال من خصومها منالا ؛ ولكن تركيز القوة في نقطة وتوجيه الضربة القوية في ميدان محدود ، يحقق الظفر ويمهد السبيل لضربات جديدة في نقط أخرى .

ونحن إذا رحنا نوزع قوانا وجهودنا على مختلف الأعمال ، لم نحدث في أيها أثرا بيّنا ، ولم نبلغ منها مبلغاً كبيرا ، ولكننا إذا حصرنا كل تلك القوى والجهود في دائرة محدودة نجحنا في إحداث تغيير كامل واضح الأثر ، وفرغنا منه نهائيا لغيره من الأعمال ، نعالجه بنفس القوة

الركزة العلاج الشامل الباقي الأثر.

ونستطيع أن نستخدم التركيز في إصلاح أحوالنا والنهضة بشئوننا على طريقتين: الطريقة الإقليمية، والطريقة النوعية.

ففي الطريقة الإقليمية يكون برنامجنا أن نخصص لكل إقليم أو جزء من البلاد زمناً نقوم فيه بالإصلاح الشامل لهذا الإقليم من كل الوجوه. فنستصلح البائر من أراضيه، ونستكمل مشروعات الصرف والري فيه، ونرقي زراعته، وندخل عليها أحدث الأساليب، ونردم ما فيه من برك ومستنقعات، ونوفر مياه الشرب الصالحة لكل قراه، وننشئ فيه المستشفيات والوحدات العلاجية الكافية، ونعمم فيه التعليم ونبني معاهد التعليم الكافية له، ونحسن طرق مواصلاته، ونعمم النظام التعاوني في كل نواحيه، وننشئ المصانع اللائقة لطبيعته، وننتفع بمصادر القوة فيه، ولا ندع شأناً من شئونه الاقتصادية والاجتماعية إلا تناولناه بالترقية والتدعيم.

وفي الطريقة النوعية يكون برنامجنا تحقيق النهضة في نوع من أنواع النشاط العام في كل أنحاء القطر في زمن معين، حتى إذا فرغنا منه انتقلنا لنوع آخر، فيكون برنامجنا مثلاً في فترة معينة إتمام مشروعات الري والصرف أو استغلال مصادر القوة، وإنشاء مراكزها أو إنشاء الصناعات الضرورية للبلاد، أو تعميم التعليم، أو استكمال ما تتطلبه المشروعات الصحية في البلاد، أو تحسين طرق المواصلات أو استصلاح الأراضي البور، أو استغلال الثروة المعدنية في البلاد، أو ترقية الزراعة وإدخال الأساليب الحديثة فيها.

ولكل طريقة مزاياها، وقد جربت كلتا الطريقتين أو مزيج منهما في بعض البلاد وكتب لها جميعاً النجاح.

وأيًّا كانت الطريقة التي نختارها فإن نجاحها يتوقف على رسم الخطة الكاملة لهذه الأعمال جميعاً، ودقة التقدير في توقيت تنفيذها، وحسن التنظيم لتسلسلها، بحيث يبدأ بالأساسي الذي ينتفع به ما يأتي بعده من الأعمال، ويقدم الأهم على ما يقل عنه في ذلك.

ويلي «التركيز» في حسن الإنتاج التنسيق والتعاون، ولعلك تدرك ما أقصد إليه من ذلك إذا رجعت إلى الطريقة التي كانت تنفذ بها بعض الأعمال العامة في بلادنا؛ فقد كانت مصلحة التنظيم ترصف بعض الطرق وتسويها بالمكدام، ولا تكاد تفرغ من ذلك حتى تأتي مصلحة المجاري تحفر ما سوت وتفسد ما أصلحت؛ وقد تنتهي من ذلك ويعاد إصلاح الطريق، ثم تجيء شركة المياه أو النور لتفسده من جديد، ولو أن تلك المصالح نسقت جهودها، وقامت بأعمالها جميعاً بالتعاون لوفر كثير من الجهد والوقت.

كذلك نجد أن وزارات الحكومة المختلفة، بل والمصالح المختلفة في الوزارة الواحدة، قد تقوم بأعمال مكررة متشابهة، وقد تسير فيها على أساليب متباينة، مع أنها لو نسقت خططها وتعاونت جميعاً في تحقيق الهدف المشترك لكان نجاحها أتم وأكمل وأكثر اقتصاداً في الجهد والمال.

لهذا أريد تنفيذ برامج الإصلاح المرسومة سواء ركزت في إقليم واحد أو نوع واحد من النشاط، فيجب أن يكون أساس ذلك تعاون كل قوى الحكومة في التنفيذ، وتوحيد قيادتها جميعاً تحت إشراف هيئة تنسيق قوية تعزل الجهود المكررة، وتوجه الجميع لتنفيذ الخطة بدقة في كل الميادين.

والعنصر الثالث من عناصر الأساليب الحديثة في تحقيق النهضة هو الاستقرار والثبات. ولست بحاجة للقول بأن كل نهضة لا تطمئن لهذا العنصر يقضي عليها بالفشل والتعثر. فالخطط المرسومة إذا قطع في تنفيذها شوط ثم طرأ على الأحوال من التغيير ما يقلبها رأساً على عقب، أو بدا لأولي الأمر أن يفتروا في مواصلة تحقيقها، وانصرفوا عنها لغيرها تصبح جهداً ضائعاً وقوى مبددة. فلا مفر لنا

[البقية في ذيل الصفحة التالية]

حديث الغرفة

للدكتور أحمد زكي بك

الغرفة التجارية البريطانية ، هي غرفة تجارية كسكل الغرف . ولكن لها مركزا ممتازا بسبب تلك الصفة الأخيرة التي تلحقها . ذلك لأن الإنجليز تجار بالطبع . ولو لم يكونوا كذلك لكانوا تجارا بالتطبّع ؛ وقد قضوا القرن الحاضر والماضي وما قبلهما يمارسون التجارة بين الأمم عبر البحار والمحيطات . فهم في شئون الاقتصاد لهم خبرة لا يجاريهم فيها غيرهم من الأمم . والغرفة التجارية البريطانية هذه لها سبب آخر للتميّز ، ذلك بأنها في مصر ، فهي تمثل المصالح البريطانية ، من تجارية واقتصادية ، في هذه البلاد ، حليفة بريطانيا . فالآراء التي تصدر عن تلك الغرفة آراء لابد أن تفتح لها الآذان وتُسمع .

وقد جرى التقليد بأن يكون لهذه الغرفة تقرير سنوي في الأكل عام ، يُحضّر بإمضاء رئيسها ، يتناول فيه رأيه ورأى الغرفة في الحالة الاقتصادية المصرية . وكان رئيس هذا العام ، وصاحب التقرير ، المستر شرقيه . وهو كنندي الأب ، ولكنه شرقيّ الوطن ، فقد قضى في الشرق نيفا وعشرين عاما ربما كانت أكثر من نصف عمره . وهو رجل قد لا يسمع الجمهور المصري كثيرا باسمه ، ولا تحمل الجرائد دائما رسمه ، لأنه يعمل في جوّ من الاقتصاد صامت . وأرباب الاقتصاد في أيديهم مقاليد الأمور ، ما بطن منها . وهم أهل حصافة ينظرون إلى هذه الدنيا كما ينظرون إلى الجوزة ، فيطلبون لبّها الباطن ، ويتركون لغيرهم قشرها الظاهر .

والمستر شرقيه فوق هذا رجل ظريف وصديق ذاكر .

وقد تناول في تقريره السنوي من مصر أمورا لها خطر كبير .

فقد تناوله أمر الغلاء في مصر ، فقال إن علاجه في تقسيط الأقوات والحاجات تقسيطا شاملا كاملا ، وقال إن هذا غير ممكن في هذا البلد « لأن الشرط الأساسي لذلك غير موجود هنا ، وهو رغبة المستهلك في هذا التقسيط رغبة صادقة ، واستعداده للتعاون في إنجاحه » وهذه كلمة لا شك صادقة . فالتعاون في مثل هذا إنما هو مظهر من مظاهر الوعي الاجتماعي الذي لا يكاد يكون له في مصر وجود . والوعي الاجتماعي ضائع لأن العدل الاجتماعي مضيّع ، وحيث لا عدالة ينصرف الناس إلى استخلاص حقهم بالحق وبالباطل ، كلٌّ على مقدار القوة في ذراعه والطول في باعه . ويزيد في ضياع العدل الاجتماعي ، وجود طوائف كبرى في مصر غير مصرية ، ولكن بأيديها ثروة مصر ، والوعي الوطني عند هؤلاء ، ليس في أفواه ، وصاحب الثروة أبعد الناس في وقت الضائقة عن وعي اجتماعي يحرمه ما اعتاده من وسعة الثراء ، لا سيما في بلد جاءه لطالب صيد في عدل أو في غير عدل .

وذكر المستر شرقيه في هذا الصدد طريقة استخدمها البريطانيون في مكافحة الغلاء ، عند بلادهم ، هي طريقة

من أن توفر الضمانات الكافية لاتصال سير النهضة وسلامة رايتها من التفكك والاضطراب وتنازع الأهواء .

وسبيل ذلك أن تكون برامج النهضة والإصلاح برامج قومية ، ترتفع فوق الخلافات والمنازعات ، ويؤمن بها الجميع ويتواصون جميعاً على تحقيقها . ومن الخير أن يشترك في وضعها ورسم تفاصيلها الخبراء الفنيون وذوو الرأي على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ، وأن تصبح دستوراً ثابتاً لا يمس كيانه ، ولا يتعرض بحال للتغيير والتبديل .

ولعلنا حين نشترك في هذا الهدف الواحد ، ونتفق كلنا على هذا البرنامج المحدد ، ونأخذ في العمل المنتج المنظم للنهوض ببلادنا أن يكون ذلك كفيلا بتأليف القلوب المتنافرة ، وتقريب الميول المتباعدة فلا يكون لأحد شغل بغير مصلحة مصر العزيزة الخالدة .

(•••)

الإعانات تبذلها الحكومة في سبيل تخفيض أسعار السلع حيث السلع أساسية . وضرب مثلا لذلك السكر ، فقال في صراحة شائقة : « إني أعتقد أنه لم يكن هناك حاجة في رفع سعر السكر » ، ولكنه لم يذكر سببا . وقال عن الكيروسين ، إنه ما كان يجب أن يزيد ثمنه ، وإن الزيادة المطلوبة في تكاليفه كانت تعوّض رفع ثمن البنزين . وهذا رأى لا شك أقرب إلى مواساة الفقير . والترام ذكره ، وأجور النقل في المدن وفي الضواحي ، من الترام وغيره ، أكثر رفعها .

وعرّج المستر شرقيه فيما عرّج على أذون الاستيراد والتصدير . فقال من الإصدار إن الحكومة أنقصته إلى حدّ بالغ ، وإن جدول الأشياء التي يمتنع تصديرها يطول من يوم ليوم ، وإن في هذا خنقا لحرية التجارة أولا ، ثم فيه تضييع لما تصبو إليه مصر من تقدّم في سياسة أمم الشرق الأوسط . ثم قال : « إن أمم الشرق الأوسط يجب أن ترتبط أولا روابط من التجارة قبل أن ترتبط روابط من السياسة . وإن الروابط السياسية لا يمكن أن تخرج من دائرة الأحلام إلى دائرة اليقظة إلا إذا سبقتها الروابط التجارية . وهذه الروابط التجارية لا يمكن أن تجتمع أطرافها فتنعقد في غير مصر » .

ومن الممتع أن ينطلق مثل هـذا الصوت في نفس الوقت في إنجلترا نفسها . فقد كتب المستر كنث وليمس في المجلة الأسيوية ، وهي تصدر في لندن ، يقول عن الوحدة العربية : « إن أمل العرب في الوحدة أمل حيّ ، وهي كعبة العرب أجمعين مهما اختلفت طرقهم إليها . وقد أصاب العرب الحكمة لما ركّزوا على الوجهة الاقتصادية والوجهة الثقافية قبل الوجهة السياسية ، فقد علموا أن الكيان السياسي الذي لا يقوم على أسس اقتصاد سليمة لا يبقى طويلا . ومصر في اقتصاد الأمم الشرقية سيكون لها دور هائل تلعبه لخير هذه الأمم جميعا » .

فالمعنى واحد وإن اختلف المنطلق ، وإن انبرى الأول في عاصمة والبعث الآخر في عاصمة ، هـذه مشرّقة وتلك مغرّبة .

ولا شك يتصل بهذه السياسة التي تبشّر ما يجرى في بلدان الشرق اليوم من مؤتمرات . فمن مؤتمر زراعي إلى آخر مالي ، إلى ثالث ورابع ، لا نحسب أحدها سوف يخرج عن دائرة الاقتصاد . ومعنى هذا أن دائرة الثقافة تُرك أمرها لتلك الأمم تجتمع إليها بدافع من نفسها . ولا شك فيما سيكون لهذه المؤتمرات من نجاح ، فقد أُمّن اجتماعها ، ولو في الصعيد الواحد ، أن الداعي غير عربي ولا شرقي . وأُمّن نجاحها أن الأعضاء سواسية فيما دُعُوا إليه ، وأنها استشارة لا جبر فيها . فإن احتفظ أعضاؤها بحرية العمل ، واقتصرت بريطانيا على النصيحة وأخلصت النية فيها ، وهي لا شك مقتصرة عليها مخلصة فيها ، أنتجت هذه المؤتمرات أداة دافعة للعمل الناجح ، ووصلت بيا لحسن تفاهم موطئه مهيع القلوب لا تلون الأوراق .

وبمناسبة هذه النشاة الاقتصادية ، نزيد القارئ اقتباسا مما قرر رئيس الفرقة التجارية البريطانية . قال : « ويجب على الحكومة المصرية ألا تترك هذه القيود تؤثر في الخطط المرسومة لجعل مصر مخزن الشرق الأوسط ، ومركزا هائلا للبضائع من كل صنف يبرع الجيران للشراء منه عن طيب خاطر . وفي سبيل ذلك لابد من احتجاز مناطق تخرج عن الدوائر الجمركية ، ولابد من التيسير للتجارة العابرة أكبر تيسير . . . إن هذه فرصة مصر الكبرى في الشرق الأوسط ، ولابد لنا من معونتها على اغتنامها » .

ونزيد نحن فنقول إن هذا كله جميل ، على ألا تكون الفرصة لمصر الأرض ، بل لمصر الناس — المصريين أرومة وجلدا . ومجال التعاون في هذا بين مصر وإنجلترا واسع خطير . ولو أن المبادأة في هـذا واقعة على المصريين ، والتجهيز له غير يسير . . .

ومشى رئيس الغرفة بعد هذا يتحدث عن صناعة مصر ، وما استحدثته الحرب منها . وفي هذا قال : « لقد كثر الحديث عن قلب هذا القطر قطراً صناعياً ، وقيل إن في هذا امتناع التعطل ، ورفع مستوى الحياة ، وانتشار الرخاء ، وإني أعيذ من يختطون لمصر مستقبلها أن يعميهم رخاء هذه الحرب . فهم في خطر أن ينسوا أن صناعة النسيج نفسها لم يكن حالها أحسن حال قبل الحرب برغم حماية جمركية عالية . إن كثيرا من الصناعات التي خلقتها الحرب في مصر قد تبقى إذا جاء السلام ، ولكن ليس لمصري أن ينسى أن امتناع السفن في الحرب ، ونظام الحصص فيها ، وغير ذلك من القيود ، أسبغت على تلك الصناعات حماية لا تقاربها حماية الجمارك . إن النظرية التي تقول إن الأمم الصناعية القديمة يجب عليها أن تدخل الصناعة في الأمم التي ظلت إلى الآن مصدراً للخامات حتى تستطيع تلك الأمم القديمة أن تروج تجارتها بالسعر [illegible] آخذة في التلاشي » ، ثم ذكر [illegible] أن الحكومة المصرية في طلب المال رفعت الرسوم الجمركية [illegible] في المائة وأنها إذا جاءت السلم فسوف لا تجد الحكومة من الشجاعة أن تذهب بمصدر للدخل تعودته الخزانة . إلى أن قال : « إن ولاة الأمور لن يتقادوا إلى المثابرة على حماية صناعات يكون في حمايتها رفع مستوى الحياة لدى قوم هم قلة (يقصد أصحاب المصانع وما بها من عمال) ، ويكون في هذه الحماية إفقار البلاد في مجموعها (يقصد بغصبهم على شراء سلع مصرية بأسعار فوق أسعار مثيلاتها الأجنبية) » .

وهذا القول يمثل إجمالا رأي الأحرار الإنجليز في حرية التجارة ، وهو رأي يُستهدى به ولكنه لا يطبق تطبيقاً أعمى ، ولكل حال لبوسها . وهذا الرأي لم تره إنجلترا نفسها من زمن بعيد . هي استخدمت الحماية الجمركية ولم يقل أحد إنها أخطأت ، فكيف يراد من مصر أن تراه وتكون السباقة إليه . ثم إزاء القلة وإفقار الكثرة ، كيف يكون في الصناعات القومية الكبرى كصناعة النسيج ؟! فهذا النسيج عندنا خاماته ، وعندنا فوق العشرة الملايين تلبسه وعلينا إلباسها ، ولأن نتحكم في أقطاننا ، وغزلها في مصانعنا وأسواقنا خير ألف مرة من أن يتحكم فيها الآخرون عند حافة الماء . ونحن اليوم لا نظن أن مصانعنا في النسيج تكفي حاجاتنا ، فلا بد من تعديدها حتى يكون منها الفائض . والعملية في مجموعها لا شك عملية رابحة . وأقول في مجموعها ، أعني منذ أن تبذر بذرة القطن إلى أن يباع النسيج في الأسواق ، مضموماً إليها آثارها المادية الضيقة الصرفة ، وآثارها الاجتماعية والإنسانية معاً . هذا إلى أن الصناعة البادئة تكلف أكثر مما يجب ، ولكن مران السنوات واستطلاع الأخطاء ، لهما أثر كبير في اختصار النفقات .

وإنجلترا ، في أمر بنجرها مثلا ، واصطناع السكر منه ، ماذا صنعت فيه ؟ [illegible] ، جعلت الحكومة البريطانية [illegible] السنوات الطويلة حتى استقام أمره ووقف على رجليه من غير عكاز .

والذي يقال في أمر النسج في مصر يقال في أمر الجلود ، فخاماتها مصرية لأن مصر لابد أن تأكل اللحوم ، ولابد أن تزيد الماشية فيها حتى تأكل كل هذه الملايين لحما ، وحتى تلبس كل رجل من هذه الأرجل الملايين حذاء . والذي يقال في القطن والجلد يقال في كثير غيره مما لدينا خاماته . ولن يضير المجموع شيئا في هذه الصناعات الوسيعة الشاملة .

والحال غير هذا بالطبع في الصناعات التي ليس لدينا خاماتها ، وأعدد فأقول حتى تلك التي لدينا بعض خاماتها . فالحديد مثلا عندنا أكسيده . ولكن لا بد لاختزاله من استجلاب الفحم آلاف الأميال . فهنا يجب أن يتريث المرء فيه تريثا كبيرا حتى يستوثق من أن السلعة لا تروج إلا في الحرب وحدها ، ولا تكون إلا للأغراض

الاستراتيجية وحدها ، فإذا جاء السلم كلّفت المستهلك أضعاف أثمانها .

إن هذه القاعدة ، قاعدة رئيس الغرفة ، قاعدة من قواعد الاقتصاد هادية ، ولكنها غير لازمة التطبيق واقتصاد الأمم هو ما هو ، وعلاقة ما بينها هي ما هي . وإلى أن يرتفع العالم بأثمان المحاصيل الزراعية إلى أثمان المنتجات الصناعية ، ليس لأمة زراعية بد من معالجة ما تستطيع من صناعة طلبا لأدنى الرزق الإنساني الذي يطلبه الصناعيون .

وهب أن قطن مصر وقمحها ، وهما من عُمُد اقتصاد البلد ، زادت نفقة إنتاجهما على نفقة استيرادهما ، فهل معنى ذلك إلغاء القطن والقمح ، فإلغاء عقولنا ، ونحن الذين نلبس القطن ونحن الذين نأكل القمح ؟!

إن واجب المنتج تخفيض النفقات ، وأداة الحكومة في إرغامه هي أبواب الجمارك وأكياس الصيارفة عندها ، وهي بتحكمها في التعريفة الجمركية صعوداً وهبوطاً تستطيع أن تتحكم في المنتج على أكثر من وجه ، ومن تلك الوجهات حماية المستهلك — حماية الجمهور — من مغالاة في الأرباح . وبهذا يذهب ما يخشاه رئيس الغرفة من إفقار الجمهور .

ويذهب المقرِّر ، رئيس الغرفة ، من بعد ذلك ، إلى مسألة استيراد — لا استيراد البضائع ، ولكن استيراد الرجال من الأجانب . ويعتب على الحكومة نظرها القصير في إغلاق الباب إلا للفنيين من هؤلاء . وهو يرى أن يفتح الباب كما كان . وكل الذي ذكره في السطور المنشور ، أن هؤلاء الأجانب أفادوا البلد في تجارتها في الماضي ، فهم لا بد مفيدوها في هذه وفي غير هذه في المستقبل . أما الماضي فلا ينكر أحد ما جناه المصريون ، ولكن لا ينكر أحد أن الذي صنعه الأجانب ، إن عاد منه قرش على المصريين ، عاد منه قروش على هؤلاء الأجانب في زمن لم تكن عند المصريين فيه كفاية . فإن كان على المصري ، كما يقول رئيس الغرفة ، ألا يمتنّ على الأجنبي بكرم ضيافة ، فكذلك ليس للأجنبي أن يمتن على المصري بما أسدى . ولنعدّها إذن صفقة تجارية كسب المصري فيها سهماً وكسب الأجنبي فيها أسهماً .

إن مصر لن تغلق أبوابها لأجنبي له مكان في اقتصادها وفي تقدمها . فإن كان الأجنبي أستاذ علم ليس عندنا مثله ، فأهلا وسهلا . وإن كان رجل طب ليس عندنا نظيره ، فأهلا وسهلا . أو كان صانعا ماهرا يأتي ليعلمنا تلك الصناعة والمهارة ، فأهلا وسهلا . ولكن كفانا « جرسونات » وكفانا بقالين ، وكفانا صُنّاع خمور وبُيّاعها ، وكفانا خبازين ، وكفانا سماسرة ، وكفانا عمال مخازن أكثر ما عندهم الرطانة وقد وهب الله آباءهم وأمهاتهم لسانا عربيا .

كفانا كل هؤلاء ، وأضرابٌ شتى من هؤلاء . وليس هذا لصالح المصريين فحسب ، بل لصالح هذه الكثرة الحاضرة من الأجانب أيضاً ، فقد ضاق بهم ، وسيزداد ضيقاً بتزاحمهم في سبيل العيش .

إن التحرر حرمته إنجلترا حتى يقوى في بلادها ويشتد . ولست أرى فرقا من وجهة الحماية بين الرجال والسلع . فليكن المصريّ تاجراً ، ولنحمه في حدود المعقول حتى يقوى ويشتد ، وعفا الله عما سلف .

وقال رئيس الغرفة إن امتداح الأجنبي في مصر لا يتعدى دوائر صغيرة ، وإن الغالب في مصر كراهة الأجنبي . وليته ذكر لنا كم من الحب عند الكثرة من الأجانب للمصريين . إن الذي أعرفه أن الكثرة من المصريين لا تزال على طبائعها الطيبة الساذجة الأولى . فلم أجد أجنبيا أو أجنبية في أزمة في طريق إلا امتدت إليه وإليها بالمعونة يدٌ كريمة ساذجة . وكثيراً ما وجدتُ هذه اليد ترفض لقذارتها . وما قذارتها إلا لأن صاحبها ليس بجيبه قرش يشتري به الصابون . وما الصناعة التي نطلبها لمصر إلا لنغسل هذه الأيدي حتى تمتد للأجنبي بالمعونة كريمة ونظيفة معا .

أحمد زكي

ذكرى ابن زيدون

بمناسبة مرور تسعمائة سنة على مولده

بين سُهدي ولوعتي ووُلوعي … أيها الشعرُ من إليكَ شفيعي
وخيالٍ قد ضلّ في ظلمة الليـ … ـل شقيّاً بقلبيَ المصدوع
أيها الليل! كم بصُرتُ بدفيك الشـ … ـوق ما بين أعين وضلوع
فإذا القلب شعلةٌ من لهيبٍ … وإذا العين لُجّةٌ من دموع
أيها الليل! كم بغى بك الوهـ … ـم أناشيد توبةٍ ورُجوع
ينسلّ من السهاد ويهوي … نحو وادٍ من الكرى والهجوع
فتلوح الذكرى على أفقها المـ … ـسحور وتمحى بلحنها الهجوع
فإذا بالفؤاد يهفو إليها … ثم يبكي مثل الوليد الرضيع!

اطوي شجون الليالي … يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالي … وعالَم الذكرى

وارقصي في مواكب الفجر نشوى … واسبحي في سنا الشعاع ...
وتفيّئي في رياض «قرطبة» الزهـ … ـراء ...
أنشدي من حلى «ابن زيدون» شعراً … ساحر ...
نشوات الصبا ترقرق فيه … كندى الفجر فوق زهر الربيع
ولهيبُ الشكوى يشع عليه … موجةً من طهارة وخشوع
لدى القصر عند مُلك «ابن عبـ … ـاد» بنى شجو الفؤاد الوجيع
واسأل عن «أبي الوليد» «بإشـ … ـبيلية» في مكانه المرفوع
ذهبَ الدهر بالملوك والمُـ … ـلك وأمسى الجميع غير جميع!

اطوي شجون الليالي … يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالي … وعالَم الذكرى

وعلى شاهق «بغرناطة» الحـ … ـمراء في وجهها السحيق البديع
اعتنق بالجيد من همة الكر … ـب وإن لم يكن بها من سميع
ترى الصخر يلمس الزمن الوغـ … ـد ويأبى الشكوى لتلك الجروح
ويحَ شعري! يكاد يصرخ فيه … مارد الكبر بنفضة الخضوع
هيه يا شعر! تلك أندلس الإسـ … ـلام في عزها السنيّ الرفيع
أتنادي الثرى فتنتفض الأر … ض وتروي أخبار تلك الربوع؟
أم هناك الثرى كذلك أضحى … قبضةً في يد الزمان الوضيع؟
أم ترى أستنفر العُرب للمجـ … ـد وهمْ بين ضائعٍ ومضيع!

اطوي شجون الليالي … يا أمـــة حيرى
وجاهــدي للمعالي … واخضعي الدهرا

القدس — حسن ظاظا

الحنان الأبوي:

ولدى...

رشفت الحنان من مقلتيك … وذقت السعادة من وجنتيك
وعلمت قلبي معنى الحنان … فيضُ حناني من مقلتيك

* * *

تُقبّل خدّي مستجدياً … وملكتني الكون في قبلتيك!
وتستخرج «القلس» من راحتي … وقلبيَ يرقصُ في راحتيك!

* * *

قرصتك مستلطفاً وجنتيك … فأطفأتُ وجدي في قرصتيك
نظرتَ تسائلني ساذجاً … وفلسفة الدهر في نظرتيك!

* * *

«حُسين» أجبني عن ذا السؤال … ترى أنا أم أنت في بُردتيك؟

«الكاظمية — العراق» علي جليل الوردي

حول مستقبل الأدب العربي

عاد أخي الأستاذ توفيق الحكيم إلى الرد عليّ ، وكان في هذه المرة منصفاً في تحديد موضوع النزاع ، قويّاً في عرض وجهة نظره ، والتدليل عليها ؛ ولكن — مع هذا — أراني مخالفاً له في كثير مما عرض .

وخلاصة رأيه « أن الفنان فوق المصلح ، والأدب الأوروبي بلغ مبلغه بقيمته الفنية ومزاياه الأدبية ، لا بفضل نزوله في معترك الحركات الإصلاحية ، وأن الفنان إذا كان فناناً ومصلحاً خلد فنه ، ومات إصلاحه ، بل ربما هزأ النقاد بآرائه السياسية والاجتماعية » . وأخذ عليّ ما أذهب إليه من تقليل قيمة الأدب الذي يدور حول النزعات الغرامية ، والحب العارم ، وأبان أن هذا خطأ ؛ فكم طرحت ومزقت كتب المصلحين ، وخلدت قصة غرام وقصيدة غزل « كروميو وجوليت » و « غادة الكاميليا » الخ .

إني أوافقك تمام الموافقة على أن الأدب أخلد من العلم ، ومن النظريات السياسية والاجتماعية ، فإلياذة هوميروس بقيت لها قيمتها ، وذهب العلم الذي كان يجانبها ؛ وقصائد المتنبي خلدت والعلم الذي كان يعاصرها لم يعد صالحاً لشيء إلا لتاريخ العلم . والعلة في هذا أن الأدب متصل بالعاطفة ، والعواطف بطيئة التغير ، ونزعاتها الأساسية باقية على حالها كما هي ؛ أما العقل ففي تغير مستمر ورقي مستمر ، فما يصلح له أمس لا يصلح له اليوم ، وما يصلح له اليوم لا يصلح له غداً ؛ ولكن ألا ترى معي أن مقياس الأفضلية بطول الزمن مقياس غير صحيح ؟! ومثل من يفعل ذلك مثل من يفضل حياة الحيوان الباقية المستمرة على حياة الإنسان المتغيرة أبداً ، ويفضل الحجر الصوّان الخالد على الإنسان الفاني ؟! إن طول الزمن ليس مقياساً صحيحاً في المفاضلة بين الأشياء ، فقد تكون دقائق معدودة مليئة بالسعادة خيراً من عمر طويل مديد لا قيمة له ؛ وبقاء العواطف على حالها هي التي ترمينا بويلات الحرب إلى الآن ، ورقيّ العقل هو الذي يدعو إلى إبطال الحروب فلا تستجيب له العواطف العنيدة الراكدة . على أني أخالفك في أن العلم القديم قد ذهب ، والنظريات السياسية والاجتماعية في العصور الماضية قد بادت ؛ إنها لم تفن بل هي خالدة خلود الأدب ، ولكنها خالدة فيما ولدته من نظريات جديدة ، وباقية في هيكل الإنسانية كما بقي آدم في ذريته .

وبعد ، ألا ترانا بعدنا عن موضوعنا إذ نقارن بين الفن والإصلاح ، فليس هذا هو موضوع كلامي ، وإنما موضوع كلامي المقارنة بين فن في إصلاح وفن في إفساد ؛ فالفن لم يفارق كلامي . وإذا كان الأدب — على العموم — باقيا خالدا ، فلأن يخلد الأدب المصلح خير من أن يخلد الأدب المفسد .

أما مسألة النزعات الغرامية ، والحب العارم ، وأنها كانت مصدراً لأعلى طبقات الفن ، وأن « روميو وجوليت » خلدت حيث فني غيرها من أدب يدعو إلى الفضيلة ، وأن غادة الكاميليا لدوماس الصغير عاشت على الزمن حيث ماتت أكثر رواياته الأخرى التي عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جدّ وحسن قصد ، فرأيي فيها ما قلتُ ، من أن الغرام والحب صالح كل الصلاحية ليكون موضوعاً لفن عظيم ، واستشهدت لذلك بفن أبي نواس في الأدب العربي ، وقررت أنا حين نقيس النتاج الأدبي بالقياس الفني البحت يجب ألا نميز بين موضوع يدعو إلى الفضيلة وموضوع يدعو إلى الرذيلة ، ولكني أضفت إلى ذلك أنه إذا تساوى في الفن موضوع أخلاقي وموضوع غير أخلاقي ، فالأول أولى ، ويجب أن يكون أولى .

إن الأدب يجب أن يكون صورة للنزعات كلها، السامية منها والوضيعة؛ أما أن يكون كله أو أكثره تصويراً للعلاقات الجنسية فقفر في الأدب، وضيق في الأفق؛ إن هذه الكثرة المفرطة في أدب العلاقات الجنسية راجع إلى استنادها على عنصر غريزي يحرك العواطف، ويشعر فيه الكاتب مع القارئ بالتجاوب؛ ولكن هل هذا كل شيء في الدنيا؟ إني لأعذر هنا من يؤلفون للمسرح أو للسينما، لأن غرضهم الأول الناحية التجارية، وتعويض ما أنفقوا على الإخراج، والحرص على ربح يعوّض جهودهم، ولذلك يختارون العلاقات الجنسية موضوعهم لأنها أكثر استدعاء للجماهير، وأكثر نداء للغريزة المشتركة؛ ولكني لا أعذر الكاتب النبيل ذا الغرض السامي في أن يجعل سلعته من هذا النوع المألوف الكثير في السوق، ولا ينتج سلعته غالية سامية قليلة في الأسواق. كم في الإنسان من عواطف مختلفة، وكم فيه من مناحٍ عقلية، [illegible] مظاهر تستلفت نظر الفنان، أيصح مع كل هذا أن يكون أكثر من تسعين في المائة من النتاج الأدبي مقصوراً على الحب، ثم تقول لي إن نتاجه أخلد؟! إنما خلده دون سواه تفاهة الإنسان وسوء تذوقه، وميل الأدباء إلى مراعاة سواد الناس الذين ليست عقولهم في رؤوسهم، ولكن في شهواتهم. إن الأدباء بهذا الصنيع يسيرون خلف الناس، لا يهدون الناس؛ إنهم بإهمالهم نواحي العقل والعواطف السامية، وانهماكهم في العلاقات الجنسية، يصرفون الدينار بالدرهم، إنهم يعيشون مع سواد الناس في ظلام الهوى لا في ضوء العقل، إنهم يقدمون لهم لخدمة الشهوة والناس يصفقون لهم طويلاً فيسمّون هذا خلوداً. الخير من هذا كله أديب يسمو بالناس، ويرجمهم إن لم يسمعوا فيرجمونه ويحرقون صحائفه، ولا يذكرون اسمه إلا باللعنة، فلعنة الأرض — إذن — يقابلها هتاف في السماء. إن الأديب في إنتاجه في الحياة الجنسية يستغل هياج العاطفة، ويعتمد على ذلك في حرارة أدبه، ويكره أن يسخّر فنه في مناحي العقل والاجتماع لأنها هادئة لا ثوران فيها، باردة تحتاج إلى حرارة قوية من الكاتب، ومهارة كبيرة في الفن؛ فهو يسترخص العاطفة الهائجة، لأنها لا تتطلب منه كبير جهد، ولا عظمة فن، ويستريح إلى بساطة العاطفة لأن العقل معقّد، وظواهر المجتمع مرتبكة، فهو يستنيم إلى الراحة، ويميل إلى الشهرة في سواد الناس.

إن أدب الأمة الحق ما صوّر الأمة وصوّر الحياة في مختلف نواحيها، وكما أن الحياة الحقة ما انسجمت فيها نواحيها، فكذلك الأدب الحق ما انسجم إنتاجه؛ فإذا كان أدب أمة واسعاً عريضاً في الحب والعلاقة الجنسية، ضيّقاً كزّاً فيما عداه، فهو صورة مشوّهة لا تمثل الواقع.

— إن حياة الناس درجات، وعقلياتهم درجات، وعواطفهم درجات، فيجب أن يمثل الأدب هذه الدرجات ويكون في الأدب الرفيع للرفيع، والوسط للوسط، والوضيع للوضيع؛ أما أن يكون الأدب كله في العلاقة الجنسية [illegible] الإنسانية، وضرب على وتر واحد في عود ذي أوتار.

إنكم تقررون أن كل شيء صالح لأن يكون موضوع أدب إذا رددتم على من يطالبكم بناحية في الأدب جديدة؛ ثم إذا أخرجتم أدباً لم تخرجوه في كل موضوع، ولكن في موضوع واحد هو الحب والغرام، فدعواكم في ناحية وعملكم في ناحية!!

وظيفة الأدب الحقة أن يغني نواحي الإنسانية، ويرقّي مشاعرها، ويُعلي من مداركها، ويوسع أفقها؛ بأن يبعث في القارئ تفكيراً قوياً، يُشعره بجمال لم يكن يلتفت إليه، أو يحرك شفقته وعطفه على رجل بائس أو أمة بائسة، أو يُلقي نوراً على ظلمة، أو يُحيي مواتاً، أو نحو ذلك؛ أما إذا هو استخرج منك الضحك على بائس لبؤسه، أو حملك على التهكم على مصلح

لإصلاحه ، أو هيّج فيك مشاعرك الجنسية ، فليس بالأدب الراقي — وإن كنت لا أنكر قيمته — مهما كُتب له من الخلود كخلود خلود إبليس .

لعل نقطة الخلاف الحقيقية بين الأستاذ توفيق الحكيم وبيني ، هو أنه يريد أن يقدر الفن بجماله فقط ، وأريد أن أقدره بجماله وأخلاقيته معاً ؛ فالقطعة الأدبية في نظره مهما بلغت من الفحش ، ومن سوء الأثر ، ومن تدهور المجتمع ، تقدر بجمالها فقط ، وأريد أن أقدرها بجمالها وأثرها في المجتمع ؛ هو يحكم على قصيدة في الوطنية وقصيدة في الحيانة حكماً واحداً إذا استويا في الفن ، وأنا أفضّل الأولى ، لأنها جمعت إلى الفن السمو الخلقي ؛ هو لا يهمه في المرأة الجميلة أن تكون عفيفة أو فاجرة ، وأنا أرى أن في العفة جمالاً من نوع آخر يزيد جداً في قيمتها ؛ هو يقدر القطعة الفنية بمقياسه الفني لا غير ، لا دخل فيها للغاية التي ترمي إليها أو الأثر الذي ينتج عنها ، فتغزل أبي نواس في الغلمان يساوي غزل المجنون في ليلى ، وغزل [illegible] الفاجر يساوي غزل المجنون العفيف ، فإن [illegible] كل منهما من فن ؛ وأنا أرى أن في الغزل الفاجر الفني قبحاً — أشعر به في موضوعه — يقلّل شيئاً من قيمته ، وغزل المجنون العفيف قد جمع إلى جماله الفني جمال العفة فزيد شيئاً في قيمته ، وبذلك أدخل عاملاً آخر بجانب المقياس الفني هو مقياس الغاية والأثر والنتيجة ؛ أنت تريده جمالاً وكفى ، وأنا أريده جمالاً نافعاً ، ومع هذا لا أبخس الفن قدره حيث كان .

وقلت : « لا ينبغي أن نملي على الفن اتجاهاً بعينه ، ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور ، إلا أن يشاء هو ويرضى » .

وهذا حق — إلى حدّ ما — ولم أرد فيما قلت أن أرسم منهجاً للأدب أحمل الأدباء على السير فيه ، ولو أردت ما استطعت ؛ ولكني صوّرت ما أتوقع ، وقلت إن ظروف الحياة الاجتماعية للأمم العربية ستتمخض عن أدباء يشعرون بآسيها ، ويدركون آمالها ، فيهيج شعورهم ، ويخرجون أدباً اجتماعياً يحدو لهم . إن الظروف الاجتماعية تؤثر في الأدب وتتأثر به ، فلما وجدت النزعة الوطنية في السنين الأخيرة رأينا أمثال شوقي وحافظ يتغنّون بالوطنية ويخرجون أدباً وطنياً ؛ وهذه الحرب لما قامت في أوروبا وأمريكا كان الإنتاج الأدبي فيهما تفوح منه رائحة الحرب وتنشد المثل الأعلى للسلم . فأنا أتنبأ عما سيكون لا أرسم منهجاً لما سيكون ، وشتان بينهما . وأنت خبير بأثر النقد الأدبي في توجيه الأدب ، فكلما خطا الأدب خطوة سار وراءه النقد يحبّذه أحياناً ويعيبه أحياناً ؛ وكم أفاد النقد الأوروبي أدباء عرفوا به عيوبهم ومزاياهم ، فأصلحوا من عيوبهم واستكثروا من مزاياهم ، وتوجهوا في أدبهم كما أبان لهم نقادهم ، فإذا رفع النقاد صوتهم بنقد الأدب العربي وأبانوا مزاياه وعيوبه ، وعرضوا للإنتاج الأدبي ، وطالبوا بإنزاله في الإنتاج في الملابسات الجنسية ، ونظروا في الظروف الاجتماعية ، فلم لا يكون نقدك [illegible] ونقدهم إلا ظرفاً قوياً من ظروف الحياة الاجتماعية المؤثرة في الأدب ، وهذا لا يسلب الأديب حريته ولكن يوجه اختياره ، كتوفقنا جميعاً في الجبر والاختيار .

بقيت مسألة هامة تفضّل بها الأستاذ العقاد ، ووافقه عليها الأستاذ الحكيم ، إذ قال الأستاذ العقاد : « إن وجهة الأدب والأخلاق والشريعة جميعاً إنما تتقدم من الاجتماعية إلى الفردية » لا من الفردية إلى الاجتماعية ؛ وقال الأستاذ الحكيم : « إن الوعي الفردي هو روح الفن ، والفردية هي عنوان الكرامة الإنسانية ، هي شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه ، لا بفكر الجماعة وإحساسها » ، ويرميان بذلك إلى نقد ما قلته من : أن تطور الأمم العربية وأخذها في سبيل الرقي سيشيع فيها الوعي الاجتماعي ، بعد أن كانت لا تعي إلا وعياً فردياً ، وسيتبع ذلك أن الأدب العربي سيكون منه أدب اجتماعي بجانب أدبه الفردي .

ومجال القول في هذا الموضوع فسيح ، ولفظ الفردية والاجتماعية يطلق على معان كثيرة ينشأ بسببها الخلاف بين الكتاب الإفرنج والعرب على السواء ؛ فالفردية التي عنيتها في مقالي السابق هي الأنانية أو الأثرة ، والاجتماعية هي الغيرية أو الإيثار ، ولاشك أن الأستاذين معي بعد هذا التحديد في أن الرقي الأخلاقي والاجتماعي سائر نحو الاجتماعية لا الفردية ، فمن أسباب رقي الغربيين على الشرقيين وعيهم الاجتماعي ، أو بعبارة أخرى شعورهم بوطنهم وأمتهم بجانب شعورهم بشخصهم ، ومن هذا الوعي نظمت الجمعيات والنقابات ، وبذلت الدماء في الحروب دفاعاً عن الوطن ، وكثرت تضحيات الأفراد لوطنهم وأمتهم ؛ وهذا التقدم الطبيعي من الفردية إلى الاجتماعية واضح جلي في مظهر حياة الفرد نفسه ، فالطفل أناني مفرط في الأنانية ، فإذا نما ونضج بعض الشيء بدأ يشعر بأسرته ، ثم بدأ يشعر بمجتمعه ، ويفهم أن له حقوقاً وواجبات ؛ فإذا قلت إن الأمم العربية سائرة في رقيها إلى الوعي الاجتماعي ، وأن ذلك سينعكس على الأدب فهذا ما أعني ، ولا أظن الأستاذين يخالفانني فيه ، بل إن الوعي الاجتماعي سائر إلى اجتماعية أسمى وأرق ، وهي الوعي الاجتماعي بالأخوة الإنسانية بدل الوعي بالوطنية والقومية .

على أن الفردية قد تطلق أيضاً على نوع النظام الحكومي الذي يتمتع فيه الفرد بحريته وملكيته وتجارته ، وما إلى ذلك ، من غير أن تتدخل الحكومة في شأنه إلا عند الضرورة القصوى ، وضده الاجتماعية أو الاشتراكية ، وفي هذا المعنى أيضاً أخالف الأستاذين ، وأزعم أن العالم سائر إلى الاشتراكية على نحو ما ؛ ومصداق ذلك أن أعظم الأمم الفردية كانجلترا وأمريكا تستطيع نظمها من حين لآخر عما يقربها من الاشتراكية ، فتتدخل في تنظيم الاقتصاد ، وتأخذ من الغني لتعطي الفقير ، وما مشروع بيفردج وأمثاله ، ونمو الأحزاب الاشتراكية فيهما ، إلا دليل على ما أقول ؛ بل العالم العربي نفسه — وفيه مصر — بدأ يظهر فيه هذا المعنى من فرض الضرائب على الأغنياء للفقراء ، والمطالبة بتدخل الحكومات لتقليل الفروق بين الطبقات ، وما إلى ذلك ، وفي كل هذا بُعدٌ عن الفردية إلى الاجتماعية .

وقد علمنا التاريخ أن الأفكار المتطرفة تتقارب وتتناغم ، فلا النظام البلشفي بحذافيره يستطيع أن يفرض نفسه على العالم كما هو ، ولا الديمقراطية بشكلها الحاضر ستتحجر ، ولكن سيتمخض العالم عن نظام آخذ بلون من كلا اللونين ، كالماء الحار يخالط البارد ، فيأخذ هذا بعض حرارته ، وذاك بعض برودته ، وأياً ما كان فالعالم سائر إلى الاجتماعية لا الفردية ، وسينشأ عن ذلك حتما انصباغ الأدب بصبغة النظام السائد .

وأخيراً أشكر الأستاذين على عنايتهما بهذا الموضوع النافع ، وضربهما المثل الصالح في الجدل الهادئ الذي يعنى بالفكرة لا بالأشخاص ، ويطلب الحق لا الغلبة .

أحمد أمين

الخـــط العربى

مزاياه وعيوبه

ضبط العرب لهذا الخط ما أزال إبهامه، وسدّ نقصه، وكذلك فعل الفرس والترك وغيرهم من الأمم الإسلامية التى اتخذت الخط العربى لكتابة لغاتهم.

ولاريب أن من يسمع دعوانا فى إيثار الشكل على حروف الحركة يتردد فى قلبه أو على لسانه هذا السؤال: كيف يُفضَّل هذا الشكل على هذا الضبط الواضح الذى يحدد صورة الكلمة فيحفظها الرائى كما رآها؟ وما الذى أدى إذن إلى التحريف الكثير الذى تعب علماؤنا فى التحرز منه، وأُلِّفت فيه الكتب؟ وكيف تحتمل الكلمة شكلات كثيرة لا تتسع لها؟

وإنى أُجمل الجواب لهؤلاء السائلين:

إن إهمالنا الشكل ليس عيبا فى الشكل، [illegible] عليه وجرينا فيه على اصطلاح واسع [illegible] وضبطنا به لغتنا. وينبغى أن نتدارك اليوم ما فاتنا قبلا.

نحن فى شكل كتابتنا بين إفراط وتفريط؛ نجد كثيرا من المخطوطات والمطبوعات الدينية والأدبية مشكولة شكلا تاما، لا يخلو حرف فيها من شكلة. ونجد مخطوطات أخرى ومطبوعات لا شكل فيها أو يندر فيها الشكل. فأما إهمال الشكل فيؤدى إلى الغلط والتحريف واللبس؛ وأما الشكل التام ففيه عبث، وفيه تحميل الكلمة من الشكل ما يزدحم عليها فيغلِّط القارئ ويتعبه. أليس عبثاً أن نضع فتحة على حرف بعده ألف مثلا؟! أليس عبثاً وضع شكلة على حرف فى كلمة مثل قالوا وباعوا، أو شكل ضمير مثل أنت وأنا وأنتم، أو شكل واو العطف والحرف فى وأمثالها؟! ينبغى أن يترك الشكل فى مثل هذه الكلمات.

ثم ينبغى ألا ننسى خصائص لغتنا، وأن نلقى الشكل الذى تغنينا عنه هذه الخصائص. اللغة العربية لغة أوزان؛ لأفعالها ولأسمائها أوزان معدودة. وقد قلنا آنفاً إن الخط إذا جعل لكل صورة من الحروف لفظا واحداً فحسبه هذا، وإن لم يدلّ كل حرف على صوت فى الكلمة كما بينا فى رسم الكتابة الفرنسية والإنكليزية. فإذا كان فى الكتابة العربية صور من الحروف لا تحتمل إلا لفظا واحدا وجب ألا نشكل هذه الصورة؛ وهذا موضوع يحتاج إلى التفصيل والضبط. ولست أعرض لتفصيله الآن؛ ولكنى أعرض منه أمثلة: ما الذى يدعو إلى شكل اسم المفعول من الثلاثى؟ وهل يلتبس على قارئ العربية النطق بمحمود ومقصود ومطلوب ونحوها، أله وجه آخر محتمل؟ ومَثَلٌ آخر مصدر ما زاد على الثلاثة مثل التفعيل والاستفعال؛ فإذا رأى القارئ ألفاظا مثل تكريم وتعليم وتقويم، ومثل استفهام واستخراج واستكبار، أيتحير فى تحديد لفظها؟ أليست هذه أدل على النطق من night و neighbour و laugh وأمثالها؟! فلماذا لا نستغنى [illegible] عن الشكل؟ وإذا شئنا الاصطلاح على أمر أو أمور غير هذه لتقليل الشكل فلا حرج. قد سمعت من بعض الباحثين فى هذا الموضوع، وصدّق ما سمعت تجريبى أن الفتحة أكثر حركات العربية. وقد تتوالى عشر فتحات أو أكثر كما فى الآية «فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى»، والآية «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه»؛ وكنا نسمع الصبيان فى الكتاتيب يلغزون بالسؤال عن عشر نصبات بين عمّ والنازعات، ونحو هذا. فإذا اصطلحنا على أن نشكل كلماتنا وندع الحرف المفتوح فتكون علامته سلبية، كما يترك الأوربيون علامة السكون، استغنينا عن شكل نصف حروفنا، واتسعت الشكلات للشكلات الأخرى. فإذا حسبنا مع هذا حروف المدّ وهى كثيرة فى العربية ومغنية عن الشكل (وقد خلت الحروف اللاتينية من حروف المدّ)، ولم ننس خصائص لغتنا، هان الأمر

جداً. نستطيع أن نكتب — مثلا — :

«عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً» فلا نشكل إلا أربعة حروف، ولا يحتمل حرف منها وجهاً آخر. وكذلك:

«ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك»، نشكل فيها اثنى عشر حرفاً.

وقد أردت ضبط الأعلام الأعجمية حين نشرت الشاهنامة فوضعتُ قاعدتين: الحرف الساكن أو الممدود لا يشكل، والمفتوح أول الكلمة كذلك؛ فاستغنيت عن شكل كلمات مثل جمشيد وأفريدون وكيكاووس الخ.

ولست أريد بهذا وضع خطة معينة، ولكني أريد التمثيل ليتبين أن الأمر لا عناء فيه إن صدقت النية.

لعل معترضاً يقول: إن هذه وسائل لا يعقلها إلا العالمون، ونحن نريد كتابة تجمع العالم والجاهل [illegible] لا يقرءون اليوم إلا مطبوعات، وإنما الخط [illegible] الخاصة وأشباهها، وكاتب الخطاب يكتب لغة عامية أو عربية، ويعرف من يكتب إليه فيكتب له ما يتضح لديه، ويشكل ما يحتاج إليه.

وأما المطبوعات وهي وسائل التهذيب والتعلم في هذا العصر، فيشرف على طبعها عارفون لا يعسر عليهم أن يتبعوا القواعد التي توضع للمطبوعات كلها.

إذا بلغ الخط العربي بهذه الوسائل ونحوها أن يحدد ألفاظه تحديداً تاماً، فهل هذا أحسن من رسم الحركات أثناء الكلمة؟ نعم! لأن هذا أقرب إلى طبيعة اللغة، ولأنه أقصر وأيسر على القارئ وعلى المستعمل.

هل الخط العربي بعد هذا واضح؟ هل حروفه على صغرها أبين في نظر القارئ من الحروف اللاتينية؟ إني أتهم رأيي في هذا: لأني ألفت الخط العربي فلا أدرك غموضه، ولأني أخشى أثر العصبية في نفسي. قد سألت المستشرقين وهم لا يُتهمون بعصبية، ولا بإلف. قال مستشرق ألماني واسع العلم بالعربية والفارسية والتركية، وكنت أحدثه في هذا الشأن في استطنبول: ما أذكر أني عجزت عن قراءة مكتوب عربي أُرسل إليّ، ولقد أعجز أنا وزملائي عن قراءة مكتوب ألماني! وقال لي هذا المستشرق مرة أخرى في مصر بحضرة مستشرق آخر نابغة: هل للخط مزايا أعظم من الوضوح والجمال والاختصار؟ إن الخط العربي يجمع هذه المزايا كلها، بل يكاد ينفرد بها. قلت: ولكن يلتبس أحياناً على القارئ. قال اشكل وآمِن نفسك من اللبس.

وأما جمال الخط العربي فأمر وراء البيان والجدل. لقد صار هذا الخط فناً ذا أصول ورسوم، له كُتّاب وأئمة، [illegible] من قبل؛ وقد صار منذ قرون كثيرة حلية وزينة وجمالا في الأبنية والأوراق والثياب، وافتنّ فيه الكتّاب [illegible] والمصورون أي افتنان.

[illegible] من طبيب تركي عظيم من أطباء العيون [illegible] الخط العربي أكثر ملاءمة للعين وإراحة لها من الخط اللاتيني. فعجبت وقلت: كيف؟ قال: لكثرة الزوايا في الحروف اللاتينية. وأنا أزيد على هذا أن اختصار الخط العربي لم يحوجنا إلى تصغير حروفه كما أحوج الأوروبيين خطهم الطويل. وكثيراً ما يقرأ أحدنا خطاً عربياً في غير إجهاد لنظره، فإذا أخذ كتاباً إفرنجياً تعب بصره فاستعان بالمنظار أو عجز عن القراءة.

نحن لا نَدّعي أن خطنا كامل ليس فيه موضع لليت ولعل؛ ولكن ندّعي أنه على علاته كخطوط الأمم أو خير منها، وأن إصلاحه يسير، وكماله قريب؛ وليس علينا إلا أن نصدق العزم، ونستمد العقل.

وبعد، فلو أنا نعيش في القرن الأول الهجري لحق لنا أن نقيس خطاً بخط لنختار ما نختار؛ ولكنا نتكلم في خط نُسج في حضارتنا أربعة عشر قرناً أو أكثر، وصار

لنا تاريخنا وأدبنا وصنعة ، وحوى تاريخنا وأدبنا ومعارفنا ، فإنْ غيّرنا خطنا وأخذنا خطاً آخر فقد قطعنا حاضرنا من ماضينا ، وسدلنا الحجب بيننا وبين آدابنا وعلومنا التي تملأ الخزائن في الشرق والغرب ، وعدنا جهالاً نحتسد عليه ، وقفنا يُضيء في عيوننا وقلوبنا كما رأيناه في مصاحفنا ومساجدنا وقصورنا . إن كان منا من يرى تاريخنا عارا ، وماضينا سيئة ، ويرى الخير في أن نقطع كل مايصلنا بهذا التاريخ ، ونستعير تاريخاً أو نعيش بغير تاريخ ، فله أن يدعو إلى نبذ خطنا فيما ننبذ من تراث الأعصار والأجيال .

لقد سألت صبيًا تركيًا في بروسة قبل ست سنين ، وأنا أتأمل الجمال والجلال في القبة الخضراء ، قبة السلطان محمد جلبي ، قلت : يا غلام أتقرأ هذا ؟ وأشرت إلى جملة جميلة وضّاءة واضحة على جدار ؟ فقال : أسكي تركجه بيلميورم «لا أعرف التركية القديمة» . لا جاء اليوم الذي يدخل فيه أحدنا إلى دار الكتب فيرى مصاحف [illegible] ويسأل شاباً عربياً مسلماً أن يقرأ البسملة فيقول : عفواً أنا لا أعرف العربية القديمة » .

إننا نقرأ اليوم مكتوبات القرن الأول الهجرى ، ومدّخر مخطوطات القرن الرابع فما بعده ، ونقرؤها في غير عسر ونتشرها . وهي ميزة يحسدنا عليها أمم الحضارات الكبرى المسيطرة على العالم اليوم ؛ كما نفهم لغة العرب قبل الإسلام ، ونتمثل بشعر امرىء القيس مع شعر شوقي . وهذه عجيبة أخرى لا تعرفها لأمة من أمم الأرض اليوم .

ولهذا توالت علينا النصائح : دعوا اللغة القديمة وا كتبوا اللغات العامية كيلا تلحنوا ، دعوا الخط العربي وا كتبوا بالخط اللاتيني كيلا تصحّفوا . ومن قبل راع الناس ما يُرى من التجانس والتقارب بين الأقطار العربية خاصة ، والأقطار الإسلامية عامة ، فدُعينا إلى الارتداد إلى الجاهليات الأولى لتنقطع بيننا الأواصر ، وتتفرق بنا السبل .

أشهد لقد سألت مستشرقاً إنكليزيا منذ سنين عن كتابة الفارسية بالحروف اللاتينية ، فقال يمكن ولا يلزم ؛ ثم سألته عن كتابة العربية بهذه الحروف . فقال : أرى أن اللغة العربية والقرآن والحديث والخط العربي بناء واحد ، إذا هدمتم جانبا منه انهدم كله — أو كما قال — . وأشهد لقد سمعت مستشرقاً آخر يقول : إن كتبت اللغة العربية بالحروف اللاتينية صارت كاللغة المالطية بعد جيلين .

ثم ، هذا الخط العربيّ ليس لنا وحدنا ؛ هو تراث عزيز عند أمم كثيرة . وأشهد مرة أخرى لقد سمعت مستشرقا يقول : إن هذه دعوة قديمة ، ولو سمعناها من إنكليزي أو فرنسي لقلنا إن له مقاصد استعمارية ، ولكنا سمعناها في مصر فماذا نقول ؟!

ولقد حدثت أديبا عربيا كبيرا مغرما بمصر وأهلها ، كثير الاعتراف بفضلها ، حدثت هذا الرجل فأفاض في الحديث ، ثم احتدّ ، ثم صاح غاضبا : أمصر تدعونا إلى هذا ؟! وأقسم [illegible] ثم زاد غضبه فقال : والله لنقاطعنّها ثم لنقاطعنّها إن همت بذلك .

عبد الوهاب عزام

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لسنة أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

السجون فى مصر فى العصور الوسطى

— ٣ —

أحصيتُ السجون وأنواعها فى مصر فى العصور الوسطى بمقال سبق فى جزءين تحت هذا العنوان(1) ، وأرجأت الكتابة فى الطرف الأهم من الموضوع ، وهو الناحية الإنسانية ، أو بعبارة أخرى نظم السجون وأحوال سكانها من مساجين ومظاليم ، رغبة فى فهم شىء من القوانين الجنائية وروحها بصدد الفرد والجماعة فى تلك العصور . والواقع أن معرفة أنواع السجون وأسمائها ، وأعدادها ومواضعها ، قد ينفع التاريخ البحت ، والتاريخ المقارن أيضاً — إن كان على الصنف الثانى من الدراسة مجال فسيح حتى الآن — ، وأما ما ينفع [illegible] من هذا الموضوع فأحوال السجون والمساجين أنفسهم ، وهو ما بقى من هذا المقال .

ولست أريد — ولا أنا مستطيع — التمهيد لتلك الناحية بتصدير فقهى فى أحكام السجن ، إذ الكاتب لا يكلّف نفسه ولا الموضوع إلا وسعهما ، والموضوع محدود بعنوانه ، والعنوان فى شأنه من الحدود الزمانية والمكانية ما لا يجعل به محلا للإعراب عن الفقه والتشريع النظرى .

على أنى بحاجة إلى تذكير القارئ بوجود نوعين من السجن فى مصر فى تلك العصور الوسطى ، وهما : الحبس رهن التحقيق الابتدائى والمحاكمة ؛ والسجن الصحيح (proper) لتنفيذ الحكم الصادر بعقوبة المحكوم عليه .

أما الحبس ، وهو سجن القاضى ، أو الترسيم ، أو سجن الحكم فى بعض المراجع ، فقد جرت العادة والأنظمة فى مصر أيام المماليك — وهو الحد الزمنى لهذه السطور — أن يكون موضعا تجمع به المحابيس من غير اعتبار لأسنانهم أو أعدادهم ، ومن غير حساب لضرورات الحياة اليومية أيضا ؛ وربما لبث به الواحد منهم السنة أو أكثر قبل تقديمه للمحاكمة ، ولو كان حبسه من أجل دين متأخر أو ضمان ؛ أى أن المتهم كان فى نظر القانون والعرف مجرما حتى تظهر براءته ، وتحلّ معاملته بأنواع التضييق والتعويق وإنكار حق المحاكمة فى ميعاد معقول (habeas corpus) . وكل هذا من العصور الوسطى ومعدنها لا يستغرب . والباحث المتزن لا يسأل منها أو يطلب فيها ما ليس من طبعها .

وإذا كان ذلك شأن السلطة القضائية والمجتمع بصدد المحابيس فى حبوسهم ، ولا يحكّم القانون فى أمرهم بشىء ، فلا [illegible] على الكاتب ولا خشية إذا هو قَبِلَ ما بالمراجع فى [illegible] على أنها حقائق مسلمة ، لا تزيّد فيها ولا مبالغة ، أو إذا هو قرأ فى تلك الحقائق ما ليس بها لفظا ونصا من صنوف الشدة القاذعة والانتقام باسم العدالة وحرمة القانون . وآية ذلك أولا أوصاف السجون المختلفة ، مما يصوّر أحوالها الداخلية أوضح تصوير ، فكلها شنيع المنظر والخبر ، وكلها موحش قذر ضيّق ، يشمّ المارّ بقربه رائحة كريهة ، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوع والعرى والقمل وشدة الظلام وكثرة الوطاويط ، أى أن الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود ، إن ساغ استعمال هذا التعبير ؛ وكل هذه الأوصاف منقولة عن مرجع معاصر معروف بسلامة القول ، وهو المقريزى .

والمرجع نفسه أن المساجين كانوا يستخدمون فى الحفر والعمائر السلطانية ، وعمائر الأمراء أيضا ، وليس فى ذلك ما يسترعى انتباها . غير أنهم لم يكونوا يُطعَمون فى سجونهم البتة ، باعتبارهم من مسلوبى الوسيلة للكسب

(1) انظر هذه المجلة رقم ٢٦٠ بتاريخ ٢١ — ١٢ — ٤٣ ، ورقم ٢٦٢ بتاريخ ٤ — ١ — ٤٤ .

العيش ، أو في مقابل استخدامهم سخرة في الأشغال الشاقة ؛ بل كانت العادة أن يخرج بهم أعوان السجان في أغلال الحديد إلى عملهم اليومي ، فيسألون الناس في الطريق ، فإذا وصل إلى أيديهم شيء من الصدقة استولى الأعوان على معظمه ، باسم توزيعه فيما بعد ، ولا ينال المسجونين منه — فيما يبدو — إلا ما يقذفون به إلى بطونهم في سرعة أو خفية وقت وصوله إلى أيديهم ؛ وويل لمن اجترأ منهم على الاحتجاج لدى السجان عند ما يردّون إلى سجونهم آخر النهار .

إنما يظهر من طريق الاستنتاج أن طرح الساجين على صدقات السابلة من مختلف الطبقات ، بدلا من إطعامهم على حساب الدولة أو السلطة المهيمنة على شؤون السجون داخل الدولة ، لم يُقصد به الإمعان في العقوبة والإذلال ، بل إصلاح على قدر ما فهمت تلك العصور من الإصلاح . والدليل على ذلك أن السجين حتى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م) من عهد السلطان محمد بن قلاون ، [illegible] السجن مكسا معروفا في التاريخ المملوكي باسم مقرر السجون ، مبلغه ستة دراهم يأخذها السجان لنفسه ، وذلك سوى "كُلَف أخرى" يقتضيها قيامه بالصرف على طعام السجين — فيما يُفهم — ، وهي في معظمها تدخل إلى جيبه الخاص .

ولذا كانت وظيفة السجان من أرغب الوظائف الصغرى في الدولة المملوكية ، يتهافت عليها الطامعون ، ويطلبها الضمان أشدّ الطلب ، ويتزايدون في مبلغ ضمانها ، لكثرة ما يتحصل منها ، وقلّما يعرف من ذلك التحصل على الساجين أنفسهم ، سيما وأن المكس المقرر لم يؤخذ من السجين الذي قضت السلطات بسجنه ، بل يؤخذ أيضا من السجين الذي قضت السلطات بإعدامه ، ولو لم يقم بالسجن إلا لحظة . وكذلك كان الحال بسجن القضاة ، حتى إنه لو تخاصم اثنان لدى مجلس الحكم ، واقتضى الأمر حبس المدّعى عليه رهن التحقيق ، ثم انقضت الخصومة بين الطرفين دون تدخل القاضي ، وجب دفع المقرر على كل حال ، ولو لم يُقم المدّعى عليه بالحبس ساعة من نهار .

لذلك كله كان مقرّر السجون ضمن عديد المكوس التي أبطلها السلطان محمد بن قلاون ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) ، إذ ابتغى بسياسة الإلغاء ، تخفيف أحمال المكوس عن كواهل الناس ، ومنهم سكان السجون والمتكفلون بهم من أهاليهم ، كما ابتغى إضعاف الطبقة الإقطاعية من الأمراء ، وأذنابهم من الضمانين والضمان ، ومنهم ضمان السجون . غير أن ذلك الإصلاح أتى بالوبال على المحابيس والساجين ، إذ جعلهم نسيمة على المجتمع ، وعرّضهم لأسوأ أنواع المعاملة والإهمال والجوع على أيدي السجانين وأعوانهم ، داخل السجون وفي الطريق العام ، مما تقدمت الإشارة إلى بعضه هنا .

لم يكن عجبا إذاً أن يعمل الساجين على الهرب من سجونهم ، وأن يتحرسوا الفرص لذلك ولو أدى الأمر إلى [illegible] السجن . إنما العجب أن ليس بالمراجع المملوكية طولا وعرضا ما يسند هذا الاستنتاج المعقول ، ما عدا حادث فرد ، وهو ما قام به عدّة من أرباب الجرائم سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) ، إذ اتفقوا ذات يوم على قتل السجان فقتلوه ، ثم خرجوا بعد الغروب من باب زويلة شاهرين السكاكين حتى لا يقف أحد في طريقهم إلى الفرار ؛ فركب الوالي في طلبهم ، ولم يظفر منهم سوى برجل أقطع ، فشنقه . على أن قلة الأمثال لتلك الحادثة لا ترجع إلى إغفال المؤرخين لذكرها عامدين أو غير عامدين ، أو إلى رضا الساجين بما قسم لهم وقُدّر ، مما قد يتبادر إلى ذهن الباحث ؛ بل هي ترجع — على الأرجح — إلى سبب أقرب وأسهل قبولا ، وهو أن الساجين كانوا يكبّلون في السلاسل والأغلال داخل السجن وخارجه ، مما لم يدع لهم سبيلا إلى الفرار والخلاص إلا بوسيلة خارجية ، وهذه لم تتيسر إلا أوقات الثورة والفتنة الداخلية ، كما حدث سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤م) ، حينما اجتمع المماليك الأشرفية ، ومضوا

الهـــلالية

وهذه قصة شعبية أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن القصتين السابقتين اللتين عالجناهما في الثقافة من قبل، أعني سيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد(1). فسيرة بني هلال كما يدل عليها اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة، وحوادثها الرئيسية وقعت في غربي العالم الإسلامي لا في شرقيه، وفي صقع هو وطن لمزيج من أجناس، لا في بلاد عرفت بوحدة العنصر وبعدها عن الدخيل، في شمالي إفريقية، حيث العنصر الفينيقي السامي والبربري الإفريقي، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم، والأثر البعيد في حضارة البحر الأبيض المتوسط، والذي كانت تربطه روما إلى جانب الروابط السياسية الثقافة اللاتينية؛ لذلك لا غرابة إذا رأيناه يتطلب من العرب الفاتحين معاملة خاصة، تختلف عن سائر المعاملات التي عرفتها البلاد الأخرى التي خضعت للإسلام والمسلمين. فتاريخنا يحدثنا أن أمور تلك البلاد اضطربت اضطراباً خطيراً عقب وفاة فاتحها وقاهرها عقبة بن نافع؛ ونحن نعلم أيضاً أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الإسلام بعد أن اعتنقته، حتى أن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى إعادة فتحها بإسناد أمورها إلى موسى بن نصير. وبالرغم من يده الحديدية التي حكم بها البلاد فنحن نجد العروبة والإسلام في كفاح دائم، يختلف حدة وضعفاً باختلاف العصور، مع البربرية والوثنية. ولعل أجل صورة من صور هذا النزاع هي تلك التي تقدمها لنا سيرة بني هلال في أسلوبها القصصي الشعبي، لا التاريخي العلمي الذي تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون. فسيرة بني هلال وإن لم تكن في حجم سيرة «ذات الهمة والبطال»، التي تقع فيما يقرب من اثنين وعشرين ألفاً من الصفحات، إلا أنها تعتبر من كبريات

(1) رقم ٢٦٢، ٢٦٧.

إلى سجن خزانة البنود، وأخرجوا من فيه من خشداشيتهم (زملائهم) من المماليك، يريدون العصيان والانتقام لمقتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل. وشبيه بذلك الحادث ما وقع بالإسكندرية سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م)، إذ كان بتلك المدينة فتنة بسبب تاجر فرنجي، فعمد الجمهور إلى السجن ليخرجوا من كان به من المعتقلين السياسيين، لولا أن أسرعت السلطات إلى نقلهم إلى أبراج القلعة بالقاهرة.

هذه خلاصة وافية لأحوال السجون المختلفة وأهلها في مصر في عصر سلاطين المماليك، وليس ينقص الموضوع إلا إشارة واجبة لموقف السلطات الحاكمة والمجتمع من تلك الأحوال التي أجمع الكتاب على شناعتها. والحقيقة أن السلطات الحاكمة لم تكن غافلة عن أحوال السجون وسكانها في تلك العصور، وفي أخبار هدم السلطان قلاوون لسجن المعونة وفاء لنذر قديم، وبنائه سجن الجب بقلعة الجبل ليحل محل المعونة، ثم قيام السلطان محمد بن قلاوون بردم سجن الجب، وإطالة السجن بخزانة البنود، ثم إغلاق السلطان المؤيد لسجن خزانة شمائل في السنة الثالثة من حكمه، لسابق تجربته بذلك السجن، ونذره هدمه إذا صارت له السلطنة، وبنائه جامع المؤيد الشهير في موضعه وفاء لذلك النذر — كل ذلك يشهد باهتمام السلطات الحاكمة بأمر السجون(1)؛ أما موقف المجتمع فيدل عليه قبول الناس لما فرض عليهم من إعطاء المساجين أنواع الصدقات في الطريق. على أن لموضوع السجون طرفاً آخر، وهو شرح ما يلقاه السجين من أنواع المعاملة، من وقت دخوله متهماً تحت التحقيق إلى وقت تنفيذ العقوبة المحكوم بها عليه كمجرم واقع تحت رحمة القانون، والموضوع من أجل ذلك حلقة أخرى، وهي باقية للمستقبل القريب.

محمد مصطفى زيادة

(1) انظر هذه المجلة رقم ٢٦٠ بتاريخ ٢١ — ١٢ — ٤٣ ورقم ٢٦٢ بتاريخ ٤ — ١ — ٤٤.

القصص العربية الشعبية ؛ وكما أن مكتبة الدولة ببرلين تفخر بامتلاكها لمخطوطة ذات المهمة ، فهي أيضاً أول تيها بنسخة السيرة الهلالية التي تخالف النسخ المتداولة بيننا اليوم .

ونستطيع أن نقسم هذه القصة إلى ثلاث حلقات : الحلقة الأولى ، وهي التي تعالج بني هلال منذ ظهورهم في الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو ؛ والحلقة الثانية ، تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد ؛ بينما الثالثة ويطلق عليها تغريبة بني هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم في الغرب .

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحديث عن بني هلال ونسبهم وذريتهم ، فهي تقول إن هلال بن عامر وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه قومه ، وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية ، حتى أن النبي أسكنه وادي العباس . وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ، ورزق بولد دعاه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده واحترف اللصوصية ، وقام بكثير من أعمال السلب والنهب ، ثم تعرف إلى الأمير (مهذب) وتزوج بابنته (هذبا) ، ومضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يرزق منها بطفل ، فقرر الزواج بأخرى ، ورحل إلى بلاد (السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها (عذبا) . وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن (هذبا) وضعت له (جابرا) ، و (عذبا) (جبيرا) ؛ ولم يمض على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنتين ، ونرى كلا منهما تريد المنذر لها ولابنها ، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا ، وينتهي الأمر بطلاق (عذبا) ورحيلها مع ابنها (جبير) إلى نجد . ومن نسل جابر وجبير انحدرت إلينا رجالات بني هلال ونساؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة في مختلف فصول السيرة . فجابر وُلد له عامر وناصر وهشام وحازم ؛ ومن نسل هؤلاء انحدر (رزق) والد أبي زيد ، وسرحان والد السلطان حسن . أما جبير فقد ولد له رياح وحنظل والنعمان ؛ ومن ذرية رياح دياب . فمن جدول النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر ، بينما دياب من ذرية جبير .

وبعد قصة جابر وجبير ، نقرأ خبر زواج (رزق) بخضراء ، وكيف أنه رُزق منها بفتاة تدعى (شيحا) وفتى يدعى (بركات) ؛ وكان الولد أسود اللون ، لذلك اتهمت خضراء في عرضها ، وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال ؛ فيكرم الأمير وفادتها ، ويعنى بها وبتربية ابنها ، ويوكل أمر تعليمه إلى خطيب كان يشرف على ابنيه « منع ونعيم » ؛ ثم يحدث شيء من سوء التفاهم بين الخطيب وبركات ، فيفتخر الخطيب بقصيدة فيها شيء من الطرافة ، لأنها تذكر لنا الموضوعات التي كان يدرسها الخطيب في ذلك العصر ، فهو يعنى باللغات وخاصة السامي منها :

ولسان عبراني والرومي يتقنها   ولسان سرياني تصير مشير
والخط والنجوم والأشكال والكيمياء :
والخط أيضا والأقلام أعلمك   وعلم الحساب وكل علم ظهور
وأعلمك علم الصياغات كلها   تصنع لروحك ما تريد يا أمير

ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده أسيرا ، ويعترف له الهلاليون بشجاعته ، ويطلقون عليه (سلامة) ويعجب به الزحلان فيزوجه بابنته (غصن البان) ؛ وتعلو مكانة (سلامة) في أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة في الزيادة ، لذلك أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم (أبي زيد الهلالي سلامة) . وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان تنتقل إلى سرحان ، وتحدثنا عن خبر زواجه بشما ووقعهما في أسر الإفرنج ونجاتهما بحيلة لطيفة ؛ ثم تسجل لنا بعض الأغاني الشعبية التي نرى ما يشبهها وزنا وقافية في أغانينا الصعيدية الحديثة التي يسهل حفظها ويحلو ترديدها . وهذا النوع من الفن الشعري إن ذكرنا شيء

فإنما يغنى اللاحم السامي القديم ، والتي وصلتنا نماذج منه في الأدب البابلي الأشوري . فاسمع (شما) تصف نفسها :

ربي أعطاك هنى   والكف منحنى
وخشوف وردى   في موج وصوبه
انظر اشاماتها   هذي علاماتها
انظر لقامتها   شبه الرديفيه
والشعر مثل الليل   كأنه سباسب خيل
والوجه مثل السيل   وعيون هنديه

واسمع إلى سرحان يعاتبها :

شما تلفتيني   بحبك ضيعتيني
قومي واسقيني   من فوق شربه
قومي أتى دورك   وهلكت من جورك
بالليل أنا ازورك   وها لوقت شربه

وقبل أن تنتهي الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئاً كثيراً من أعمال الهلاليين في الحجن و[illegible]

أما الحلقة الثانية فتبدأ برحلة السلطان حسن وأبي زيد من بلاد السرو إلى نجد ، حيث تعيش قبيلة [illegible] جبير ، أعني الأمير غانم وابنه دياب ، وسبب هذه الرحلة القحط الذي حل ببلاد السرو . وفي طريقهم إلى نجد نقرأ فصلا طويلا عن حروبهم مع يهود خيبر وانتصارهم عليهم ! وفي نجد يتزوج السلطان حسن (نافلة) أخت دياب بعد أن يعده بأخته (نور بارق) أي الجازية . وفي هذه الفترة نجد وصفاً للمعارك التي قامت بين الهلالية والعقيلي حنظل والهيدبي ، ثم تنتهي إلى الاصطدام بين أبي زيد ودياب .

ولا تنتهي هذه الحلقة إلا بعد أن نطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة ، والهلالية خاصة ، وانتصاراتهم على الإفرنج .

وتغريبة بني هلال أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه السيرة تمس بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة ، في شمال إفريقية ، وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي صحيحة لاشك فيها ، كما أن بني هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الإسلام ، وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر في سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنساً وثقافة . فابن الأثير يحدثنا في كامله بأن رسول الله (ص) تزوج في العام الرابع من زينب بنت خزيمة أم المساكين وهي من بني هلال ، ثم يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن ، ومرات كثيرة أخرى في مناسبات مختلفة . أما خروجهم إلى إفريقية فقد ذكره أكثر من واحد من المؤرخين ، أذكر منهم هنا ابن خلدون فقد جاء في ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه ما نصه : (كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقية ، وخطب للقائم العباسي ، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة ، فكتب إليه المستنصر يتهدده ، ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد الجرجرائي ولم يكن في رتبته ، فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله ، فحقد ذلك وأغرى به المستنصر ، وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال ، وبعثهم إلى إفريقية وملكهم كل ما يفتحونه ، وكتب إلى المعز : أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ..)

وبينما نجد التاريخ جافاً في تصويره هذه الحملة ، إذا بالسيرة تعرضها عرضاً وافياً مستفيضاً ، فهي تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعد حملة اليوم ، فنحن نقرأ خبر إرسال العيون إلى البلاد أولاً لاستطلاع أخبارها ، ومعرفة قوتها ، وأحسن الطرق الموصلة إليها ، وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء الهلاليين من مرعي ويحيى ويونس وأبي زيد ، ويقع جميعهم في قبضة العدو ولا يفرج إلا عن أبي زيد الذي عاد وجهز الجيوش لفتح تونس ! ويسير أبو زيد مع بني زحلان ، وحسن مع بني دريد ، ودياب مع بني زغبة ... ويؤتى بالجازية من مكة لتكون في الطليعة ؛ ثم نقرأ قصصاً كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجي عامر ، والملك الغضبان ، والخزاعي ، وشبيب التبعي ، والعردويل بن راشد ، وأشهرها هي قصة بني هلال مع الناصي حاكم صعيد مصر . وما كادت تتحرك هذه

الجيوش لملاقاة الزناتي خليفة حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة ، فهو يضلل جواسيس العدو مرة ، ويستولي على عيون الماء مرة أخرى ، ويأتي بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية . وقد أطلق مرة المنادي ينادي في العرب : (كل من كان عنده ناقة والده يبعد ابنها عنها ، أو فرس والده يبعد ابنها عنها ، وكل من كان عنده حصان ناتوق يجنبه عند فرس شايع ويلحقونا على مين الخطيري ، وتخلي العرب كلهم يدقوا طبولهم في زولهم على العين ، فيسمع الزناتي حنين المهاري وصهيل الخيل وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجي لنا الحرب) . كما أنه كثيراً ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد ، والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهلين والتمهيد لدخول الجيوش ؛ وكان تعهد هذه المهمة يوكل عادة للجازية التي كانت تقوم بها خير قيام ، فاسمعها مثلا تتحايل على منصور أ…

يا بواب منصور		افتح لـ… السور
نسر له بدستور		ونبيع …
والله ما افتح الباب		لو شفت العذاب
ولا اضرب بحراب		من غير سكارى
افتح لا تبالى		دا إحنا لا عيالى
ونبيع الخلخالى		وأحزمة المهارى
والله يا طريفه		خايف من خليفه
له حربه رهيفه		تمرق من الحجاره

وبعد حديث طويل تجد الجازية تتغلب على منصور ويفتح لها ولمن معها من نساء ورجال ، ويتمكن الهلاليون من إطلاق سراح مرعي ويونس . ثم تدور الدائرة على الزناتي فيُقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدة التي شغفت بمرعي عند ما كان في سجن أبيها ، فهي التي أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازلته ، لأن دياباً أقدر الفرسان لمنازلة خليفة . خلا الجو للعرب في تونس واستولوا على عروش الغرب السبعة ، وشرعوا في تقسيمها بينهم ، كما أخذوا في الاستعداد لغزو مراكش . وهنا نجد النزاع الذي كان قائماً بين العرب في الجزيرة ، أعني بين اليمنية والقيسية ، ينفجر مرة أخرى في إفريقية ، فيمثل أبو زيد القيسية ، ودياب اليمنية ؛ وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد ، فهي في جدول الأنساب الذي ساقته من قبل جعلت دياباً ينحدر من فرع تجري في عروقه دماء حمير ، فهو دياب بن غانم بن رياح ابن حمير بن رياح بن جبير ، فذكر (حمير) هنا لم يأت عبثاً ، وإنما تمهيد لسائر الخصومات التي قامت بين أبي زيد من ناحية ، ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبي زيد فيما بعد .

أدت هذه القبائل القيسية اليمنية رسالتها في شمال إفريقية وجعلته عربيا جنسا وثقافة ودينا حتى يومنا هذا . وبعد ذلك نقرأ خبر انتقال دياب إلى السودان والحبشة ، ومقتل دياب ، وتولي ابنه نصر الدين الزغبي حكم بلاد الغرب ، وانتقال بعض القبائل القيسية إلى صعيد مصر ثانية ، وأعالي النوبة والخرطوم ، فدارفور حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الرزيقات نسبة إلى رزق والد أبي زيد ، وقبيلة سليم نسبة إلى بني سليم . وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية ، فهم مجمعون على أن لهجة صعيد مصر وعرب أولاد علي ، غرب الإسكندرية ، ومالطة وشمال إفريقية وأهالي النوبة ، وكردفان وجنوب الخرطوم ودارفور لهجة واحدة ، لها مميزاتها الخاصة التي تميزها عن سائر اللهجات العربية .

لكن قبل أن أختم مقال اليوم أحب أن أقول إن استقرار هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينسها يوما نجدا وجمال نجد ، وحرية نجد ؛ وقد عبر مرعي عن هذا الحب بقوله يخاطب سعدة بنت خليفة :

يا سعدة نجد العريضة مربه		وبيت بها أهلي وكل جدود
بلادي ولو جارت علينا مربه		وأهلي ولو شحت علينا تجود

فؤاد حسنين

حمار عراف

[ولد يوستينوس كرنر Kerner كاتب هذه القصة في أواخر القرن الثامن عشر . فلما كان في الثامنة عشرة كان مقدراً له أن يعمل في مصانع النسيج ، فانتشله صديق شاعر ، بعث به إلى توبنجن حيث درس الطب فصار طبيباً ، ومات في الخامسة والسبعين طبيباً ، وعاش بين ذلك عيشة متعارضة لكنها متماسكة . فقد كان في حياته العامة أغلب ما يكون مرحاً ، جسوراً ، راضياً عن الحياة ، خدناً وصاحباً ؛ بيته منتدى ؛ قل أن لم يقصده كاتب أجنبي أو شخص ذو شأن ؛ وداره مجتمع لقوى المواهب الفتية يبذل لهم العون في دعة وملاءة . لكنه مع ذلك كان يحدوه شوق صوفي إلى الدار الباقية ، ويشغل مخه عالم الأرواح . وقد تولد من هذا التناقض في الكيان غرائب في الشعر ، فإلى جانب أغانيه النابضة حماسية تنساب انسياباً ناعماً ، وتخلص من عالم الحقائق عميق الغور ؛ عامر أحياناً ، وولع بالهول والرعب . وخير ما كتب : « ظلال المثل أوكس » ، وهو ساخر عامر بالأماني ، غني بالفكاهة البديعة الفذة . وفي قصة اليوم مثال من فكاهته] .

لم أعمل في ذلك المساء غير أن خرجت للنزهة مع ماتياس إلى ما يسمى بجبل وارتبرج ، وبعد نصف ساعة . وكان جل ما يبتغيه ماتياس من هذه النزهة أن يعرف الصياد الشهير ناست ، الذي يسكن الحانة القائمة فوق هذا الجبل ويديرها . وكان لناست أيِّل يركبه ويستخدمه في فنون أخرى ، وأرنب يقرع الطبل ، وحمار عرّاف .

فخرجنا من الباب المسمى باب سيلر ، فلقينا قروياً ومعه حصان ضخم مشدود إلى عجلة نقل يتجه اتجاهنا . فلم يكد القروي يلمح ماتياس حتى ناداه بأعلى صوته : ماتياس يابن عمي ! إنه لمن حسن الصدف أن نلتقي هنا .

فعرف ماتياس فيه قريباً من أقاربه الدانين ، وقروياً من أهالي أورنجن ، وسُرّ لهذا اللقاء . لكنه لما أخذ يتحدث إليه عن بغيته من الذهاب إلى وارتبرج وأنه ينشد معرفة الصياد ناست وحيواناته ، أظلّت جبين ابن العم سحابة ، وعلته تقطيبة شديدة ، وانفجر ساخطاً يسب الصياد المسكين .

قال : هذا الحصان الجيد ، وإليه قليل من المال قد فقدت به من ناست ، وكانت ثمرة معرفته ، ما في ذلك شك . لكنني إن أنس فلن أنسى تلك الضربات التي أنزلها على ظهري ذلك الجحود بنصل حمّالة الأيائل ، ولا الشتائم التي كالها لي . فإذا بلغتماه فقولا له ، وقولا للناس أجمعين : إن الحيوان الذي حمله إلى فرانكفورت على أنه فرس بحر أمريكي (سيد قشطة أمريكاني) لم يكن سوى حصان نقل أمرَدَ طاعن في السن .

فكاد ماتياس يستلقي من الضحك على قفاه ، وقال لابن عمه : ألا إن هذا الشيء عجاب ، فإن أقمت عليه الدليل فإني والله لقاصّه على الناس جميعاً ، وآخذ به ثأر ما أصاب ظهرك من ضربات .

قال القروي : وكيف لا أستطيع البرهنة عليه . سل جلاّد شتوتجورت في ناحية أورنجن ! لقد كان الحصان مريضاً ... فداواه مسهّلاً ، فلم ينفع معه ، فأعطاه علاجاً عجيباً قوياً لست .... فاختفى المرض ، لكنه اختفى مع المرض كل شعر الحصان فانجرد واملسّ كالحذاء اللامع ، حتى أهداب العينين زالت ، وبات ذيله كثعبان البحر . وبينا أنا سائر به في مثل هذا الأوان في ربيع العام الفائت يجر مركبتي في هذه الطريق إذا بي ألقى الصياد ناست وراءه . فجعل يغالي لي في مبلغ ما أربحه إن أنا قصدت به إلى سوق فرانكفورت تحت رعايته ، وأراه الناس لقاء جُعل معلوم ، على أن أكتم خبره فلا أقول أو يقول إلا أن الحصان من فصيلة نادرة من بلد أجنبي ؛ وهو الكفيل بما يبقى . ثم جعل يطاردني ويلاحقني حتى نزلت أذل ، فجلسنا إلى مائدة هناك وجعل يسقيني ، وكان يجالسنا طالب من هيلبرون يحمل لناست كثيراً من الود ، فاشترك في الحديث ، وجهد في إقناعي بالذهاب مع ناست والحصان إلى فرانكفورت ، وعرضه في سوقها بوصفه فرس بحر

أمريكي ، فسوف يقبل الناس على مشاهدته ، فإن تلق هناك لم يعدم من العلماء من يحشوه ويضمه إلى مجموعة الحيوان النادر التي يحتفظون بها في متحف الحيوان .

واستطرد القروي يقول : فرضيت . وكنا بعد يومين في فرانكفورت ومعي الحصان ، ومع ناست أنواع حيوانه . واستطى ناست أبلقه ودار به في الحلقة ينادي أنه جلب إلى أرتيه الطبّال وجياره الزمّار حيواناً نادراً لم تشهده أوربا قبل الآن ، ألا وهو فرس بحر أمريكي على قيد الحياة ، وأقبل الناس على رؤيته إقبالا شديدا ، ووعدني ناست بثلث الدخل . لكنا اختلفنا بعد ثلاثة أيام ؛ فقد بدا ناست يتبرم بي ، لكنه لا يتبرم بالحصان . وإذ ألكز جاره الذي كان رفيقي ، جرد حلية الأيائل في غمدها وألهب بها ظهري علقة ساخنة . وافترقنا ! وبعت الحصان سيدا محترما يجوب الأقطار بأسوده وفيلته لقاء مبلغ طيب من المال ، غير كاتم عنه حقيقته وإن كنت ... هذه الحقيقة عن غيره عاما كاملا على الأقل ... العام ، وتحققت من وعدي نكاية بناست .

فقال له ماتياس وقد أطربته قطيعة الاثنين : سأذيع الخبر فاطمئن يا ابن عمي العزيز . وودع كلاهما الآخر ، ودرجت بنا المركبة في طريق وايتبرج ثم عرجنا على الجبل .

***

وإنا لنتحدر من الجبل الزدان بالكروم إذا برهط من السيدات الأنيقات والسادة المهندَمين يلقوننا في الطريق ، ونعلم منهم أنه في مثل هذا اليوم من كل أسبوع يدور الحديث والرقص في البهو الفسيح في تلك الدار القائمة في أعلى الجبل . فلما دخلنا البهو ألفيناه مكتظا بالراقصين . وعلى حين غفلة ساد السكون ودخل في حلقة الرقص رجل مديد القامة ، قد لف جسده بملاءة حيثما اتفق ، لكن سحنته كانت تسترعي النظر . وعصب رأسه بعصابة من القماش تستر نصفه . وكان الرجل ممرورا كما علمت فيما بعد ، وكان مجهول الأصل والمصير . وكل ما يعلمه الناس من أقواله المخبولة ، أنه كان يشغل منصبا رفيعا في سالسبرج في سالف الأيام ؛ وأن الزمان خانه في صداقة الخلان وحب الحسان ؛ وأنه خرج هائما على وجهه في الغابات ، فإذا حل الشتاء هبط ليلا إلى القرى واصطلى .

وهو هنا وههنا يغشى بيت راعي الكنيسة ، ولا يأخذ من أحد مالا ، ولا يمد يده إلا لتناول ما يسد الرمق . وهو يتحدث إلى رجال الدين باللاتينية واليونانية ، ويعزف على البيان تقاسيم آية في الإبداع . في مشيته ظرف ومهابة ، وفي الهيئة التي تخلعها تحلته الهدلة على رأسه وجسده مثل هذا الظرف والجلال . وكثيرا ما يرى حول هامته أكاليل الأزهار . وقد سمل إحدى عينيه غلمان إحدى القرى من قليل الأدب والحياء ، فكان يسترها بعصابة ملفوفة حول رأسه كالعمامة .

... اللبانة أعمق غور في جوف الليل ، فلا يستهويه فيه إلا البطن الخاوي ، والموسيقى الرائعة تتناهى إليه من بعيد . فإذا خرج لم تتعرض له الشرطة ، لأنه لم يكن قد حل الزمن الذي تعتقل فيه الشرطة مثل هؤلاء الأغاط .

وكان فوق هذا الجبل مكان للانتظار عبارة عن برج عال فوقه قبة من الصاج مثل الزر العظيم ، يُصعد إليه بدرج ، ويدخل إليه بمنفذ ، وليس في البرج مأوى ولا سكان . لكن المرور اتخذ من قبته الشبيهة بالزر العظيم مأوى له . وقد كان يأوي إليه حين استرعت موسيقى الجبل انتباهه ، فدخل البهو في سحنته التي ألفه الناس منه ، فكف الراقصون عن الرقص ؛ أما هو فاقترب من فتاة لطيفة ترتدي ثوبا أزرق ، ويقال إنه لما حاذاها تمتم يقول : بلى ، بلى ! لقد كانت ترتدي مثل هذا الثوب ! ثم قدم للفتاة ذراعه يدعوها إلى الرقص فلم تمانع ، فدار معها دورات

طريقة موزونة ، ووقف الناس من حولها ينظرون . وبعد انتهاء الرقص قادها إلى أمها يهمهم بالشكر ، واختفى في البهو كما حضر سريعا وعلى غير انتظار .

* * *

لوددت أن أتبع الرجل إلى جوف الغابة لولا أن احتجزني ماتياس ، واقتادني إلى غرفة مجاورة للبهو فيها رجل يقول إنه قدم إليه قدحا من الجعة بعد أن سمع منه حكاية فرس البحر الأمريكي . وقد دفعني إليه بقوله لي إنه يعرف أبي ، وإنه رجل رضي الخلق ، لا حاجة بي إلى تهيبه .

وسرعان ما انضم إلينا الصياد ناست . فهو مدير هذه الحانة ، وقد جاءنا ناست بكتاب حافل بشهادات من ذوي المقامات الرفيعة ممن أعجبتهم فنون حيوانه . وطفق يقص علينا من طرائفها أن أيلة ، وكان إذ ذاك يطلب السفاد ، ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منه ، صدد إليه أخيرا قرونه وكان على وشك أن يفتك به ، لولا أن [illegible] فوقفه وألزمه طاعته ، واعتلى صهوته [illegible] يطل ! وهنا قال صديق والدي [illegible] وفرس البحر الأمريكي — ثم انطلق مقهقها وهو يقول : آه يا سيدي ناست !

فرجاه ناست أن يمسك عن ذكر هذا الحيوان ، فلم يعد في قطيعه ولم يعد يملكه ! وابتعد بكتابه ، واختفى من البهو .

وكان السيد الغريب الذي أمسك إذ ذاك بيدي وكان حقا من معارف والدي — كان الدكتور جيلين الطبيب والعالم المعروف في ميلبرون . وقد كان ما زال مبتهجا تشغله قصة ماتياس عن فرس البحر الأمريكي . وعاد ماتياس يقص حكاية ابن عمه ويورد أقواله في لهجة فكهة أثارت الضحك بين الحضور .

فقال الدكتور جيلين عندئذ : هكذا شأننا دائما نحن العلماء ، فقد ألقى بلومنباخ محاضرة عن هذا الحيوان ، أعلن فيها على رءوس الأشهاد أن لا غش ولا خداع في هذه الظاهرة ، بل إن الحيوان فصيلة من فصائل الخيل ، عجيبة غاية في العجب ، لم تعرف قبل الآن . وقد قرأت أخيرا في صحيفة من صحف برلين أن هذا الحيوان قد بيع بثمن باهظ ، وأن العلماء الطبيعيين يكدون الآن أذهانهم سعيا وراء حقيقته ، وينشئون فيه أغرب البحوث .

وسعى أحد السادة الحضور في طلب ناست حتى عثر عليه وأحضره ، وداعبه مداعبة قوية شديدة الوطأة في شأن فرس البحر الأمريكي . فلم ينكر ناست أمره ، بل أنشأ يقص حكايته كما قصها القروي ابن عم ماتياس ، وماتياس نفسه بحذافيرها تقريبا ، مرتاح البال .

وقال الدكتور : إني أسخر من أجل الفرس الأمريكي [illegible] العلماء ، وهم أن يسخروا من أجله بي فيسخروا من [illegible] أنفسهم ! وشأنهم في هذا شأن الأطباء الذين [illegible] ، وليس البتة من صلة بين هذه [illegible]

وسري هذا القول عن ناست حتى غفر لماتياس حكايته عن فرس البحر الأمريكي ، أو لعله لم يعرف أن ماتياس هو الذي قصها على الدكتور جيلين . وقد استصحبنا متوددا إلى قطيعه ، لكنه لم يرنا الأيل الذي كان عندئذ في أوان السفاد ! لكن أرنبه طبّل لنا ، وأطلق مدفعا ؛ وعرش حماره حين سأله ماتياس كم سنة يعيش ؛ عرش بحافره عرشة واحدة كأنما يقول له : ستعيش سنة واحدة فقط كلها قلق وهمّ . فهل كان هذا تدبيرا مقصودا من ناست ، أو أن الحمار — وهو مراقب — علم أن ماتياس قريب لذلك القروي الذي أسكره في فرانكفورت ، فأحب أن ينتقم منه بالتنبؤ له بأن الباقي من عمره سنة واحدة ؟ لا حيلة لنا في هذه المسألة ولابد من تركها بلا جواب .

محمود الدسوقي

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر